مطر أسود

تصميم الغلاف
عبد العزيز محمد

جائزة حنّا مينه للرواية
3
العام 2017

مطر أسود

رواية

سليم عبّود

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب

وزارة الثقافة - دمشق ٢٠١٨م

مطر أسود: رواية / سليم عبود .- دمشق: الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠١٨.- ٣١٢ ص؛ ٢٠سم.
(سلسلة جائزة حنا مينه للرواية؛ ٣).

١- ٨١٣.٠٣ ع ب و م ٢- ٨١٣.٠٠٩٥٦١ ع ب و م
٣- العنوان ٤- عبود ٥- السلسلة
مكتبة الأسد

الإهداء

إلى وطن

يزهر الياسمين على شرفاته

مروّى بدماء الشهداء

مطر أسود

-١-

«أقفز.»

«أنت تدفع بنا إلى الموت.»

«أليس أفضل من الموت ذبحاً؟.»

أمسك رشيد بيدي، ودفع بي نحو النافذة، وقال: اقفز، الوقت ينفذ.

نظرت من النافذة إلى أسفل نحو الأرض... أربعة أمتار حسبتها وادياً عميقاً.

«اقفز.»

كانت صيحات «الله أكبر» تقتربُ، وكان رشيد متأكِّداً أنهم سيأتون إليه وأنه مستهدف. اهتزّ الباب بضربات أقدامهم.

قال: «سيكسرون الباب، اقفز، ليس أمامنا حلّ آخر.»

أغمضت عيني وقفزت، كان اصطدامي بالأرض موجعاً، أحسست بقدمي تئن تحت جسدي النحيل... جاءني صوته: انهض.

نهضت، وركضت غير مبالٍ بوجع قدمي، وركض رشيد، وركضت أصواتهم وراءنا «سنقتلكم أيها الكفرة.»

* * *

مساء...

جاءني فؤاد وطاهر.

كان طاهر بارعا في عرض تفاصيل ما حدث، قال:

«كل الحكاية قرع الجرس قبل انتهاء الحصة الصباحية الأولى.»

اعتقد الطلاب أن الإدارة هي التي فعلت ذلك، ربما لحفل خطابي، أو لمسيرة كما يحدث عادة، فاندفعوا نحو الصالون الواسع فوجدوه مغلقاً، فوجئنا... ثمّة رجال كُثَر بعضهم بذقون ومعهم عصي وسكاكين.

كان كل شيء يبدو غريباً، وينبئ بأمر سيّء غير متوقّع.

كنت أنا وفؤاد في قاعة الدراسة بالطابق الثاني المطلّة مباشرة على الصالون.. من بين فتحتي باب أطللت برأسي أستطلع

ما يجري... كان المشهد مخيفاً... ثمة رجالٌ بذقون طويلة لم أرهم من قبل... وجوههم مخيفة... راحوا يهاجمون الطلاب والمدرّسين. ولفت انتباهي مدرّس التربية الرياضية سعيد... كانوا يتقاذفونه بأرجلهم ككرة، ثم سقط على وجهه كعمود وتسارعت الأقدام لركله على رأسه وجسده، وصيحاتهم تعلو كقطيع من ذئاب.

رأيت دمه يرسم دوائر، وتتلاقى مع دوائر ترسمها دماء أجساد آخرين لتشكل بحيرة. تراجعت مفزوعاً. قلت لفؤاد: ما يحدث مجزرة!

قال: اغلق الباب واقفله جيداً.

قلت: لنخرج من هنا.

ثمة وقع أقدام تقترب منا. قلت: «أظنهم جاؤوا.»

ارتج الباب بقوة. قال فؤاد: دعونا نقفز من النافذة.

قلت : سنموت... المكان عالٍ.

قال: أفضل من الموت بسكاكينهم.

قفز فؤاد ... لم يقوَ على الوقوف. وراح يناديني وهو ملقىً على الأرض: «اقفز.»

كيف قفزت، كيف صرت على الأرض، وكيف ركضنا في الغابة، ووصلنا السور الخارجي... بدا ذلك كحلم.

* * *

كان طاهر أقرب الزملاء إليّ في دار المعلمين .

كنت أعرفه من أيام الدراسة في المرحلة الابتدائية. كان نحيل الجسم... طويل القامة... أطول مني بقليل. رسمت حرارة الشمس سمرتها الدّاكنة على وجهه... كان شديد الاهتمام بتسريحة شعره... يحب المطالعة وقراءة الكتب والحوارات السياسية... شديد التعصّب للفقراء... يقول إن الأغنياء كحشرات القراد تمتص دماء الفقراء لهذا وجبت مواجهتهم.

أحببته... لم يكن ثمة صديق آخر لي غيره...

كان والد طاهر عندما أزور طاهراً يشعرني بمودة كبيرة...

يقول لي بحنان: «أنت مثل طاهر.»

ويحدثنا عن وجع الفقر والظلم والجوع وقسوة الشتاء في البيوت الترابية الفقيرة، وتعب الصيف في الحصاد، وجني القطن والذرة :

«وفي نهاية الموسم، يا بني يذهب الجهد كله للآغا.»

كان طاهر يمتلك ذاكرة عجيبة... تحوي تفاصيل طفولته... يقول إنه يذكر يوم كانت أمه ترضعه، وكانت سعادته في تذكّر اللحظة التي قامت فيها الثورة، وكيف جاء رجال إلى والده ومعهم أوراق وقالوا له:

«باتت الأرض التي تعمل فيها ملكاً لك.»

بعد حصولنا على الشهادة الإعدادية بتفوّق، كان رأي طاهر أن يلتحق بدار المعلمين... قال: أحلم بالحصول على عمل سريع لمساعدة أهلي.

سألته «وأحلامنا بالجامعة؟.»

ضحك، «لنا الحلم، ولغيرنا الجامعة، نحن فقراء... ألم تسمع بما قاله ذاك الشاعر: إذا ضاقت بنا سبل المعالي وأفلسنا نصير معلمينا. »

في دار المعلمين تعرفنا على فؤاد... كان من قرية صغيرة قريبة من قريتنا...

يعمل والده بائعاً متجوّلاً على حمار. يبيع الخيط والإبرة، وإيشاربات وزجاجات عطر رخيصة وحنّاء وأمشاط مصنوعة من الخشب، وأخرى مصنوعة من عظم البقر.

يضحك فؤاد عندما يتحدّث عن أبيه، «أنا أنتمي إلى البرجوازية.»

ويمازحه طاهر، «أنت... أم حمار أبيك؟.»

ويستمرّ فؤاد بالضحك «أنا... وحمار أبي واحد... ماذا عن حمار أبيك أنت؟.»

ويبتلع فؤاد مزاح طاهر ويلتفت إليّ... أمسك له ذقني في دعوة للصمت.

كان فؤاد شديد الاهتمام بالأحداث السياسية، ويفخر أنه من بيت سياسي... يقول: «والدي اعتقل في زمن الشيشكلي... وأخي الأكبر من ضباط ثورة آذار.»

كنت أحب أحاديث فؤاد التي يختلط فيها الجدّ بالمزاح، وتتجلى براعته في الحديث عن علاقاته العاطفية، يقول إنها تتجاوز علاقات عمرو بن ربيعة ويقسم بالله «إنها طاهرة.»

كان فؤاد يحفظ عن ظهر قلب أكثر قصائد نزار قباني في المرأة، ويتباهى قائلاً: «نزار ينظم، وأنا أصنع من أشعاره شباكاً للنساء... لا أدري كم واحدة على شفا حفرة من الموت لأجلي.»

يسأله طاهر: على ماذا، على طول قامتك، أو خضرة عينيك؟.

«للنساء مزاج، عندما تعرفه تدخل قلوبهن.»

* * *

قال طاهر: «اترك بيت أخيك، وأقم معنا هنا في دار المعلمين، الحياة الداخلية جميلة.»

قلت : «لا أستطيع ترك بيت أخي.»

«نريدك معنا.»

بعد تلك الحادثة التي ارتكبت في دار المعلمين من قبل الإخوان المسلمين، تغيّر أغلب الجهاز الإداري. يقول الموجه رشيد بصوت عال لكل الطلبة:

«من لا يعجبه الالتزام بالثورة، فليرحل.»

نصحني أخي بالابتعاد عن السياسة، وحتى عن الحديث فيها:

«كلها وجع... وأحلام.. تجدها في النهاية سراباً صادماً.»

وكنت أخالفه الرأي دون أن أجاهر بذلك...

ذات مرة، وجد كتاباً بين كتبي بعنوان «اغتيال وطن» قدّمه لي الموجه رشيد، وطلب مني القيام بتقديم موجز عنه في

الاجتماع الحزبي. لم يعجب أخي وجود الكتاب. أمسك بالكتاب ورماه جانباً، وقال:

«مالك وتلك الترّهات؟ نحن هنا نبحث عن لقمة عيشنا... السياسة ليست لنا... حتى في أحزاب الفقراء القيادة لمن يملك المال... ستعرف في المستقبل ذلك.»

كنت أؤمن بتجربته رغم اختلافنا في الآراء. كان أمضى سنوات في حزب سياسي غير مرخّص له بالعمل، وسُجِنَ سنتين، وعندما خرج من السجن، فوجئ أن أغلب القيادة الجديدة من الأغنياء. فقال لهم:

«لم يعد هذا الحزب يشبهني.»

نصحني بالتوجّه إلى «دار الكتب الوطنية» المجاورة لساعة «باب الفرج» التي تتوسط المدينة... قال: «ستجد فيها الكتب النادرة في التاريخ والفقه والسيرة... والأدب والتراث، وهي فرصة لتكوين ثقافتك. هذه الفرصة لن تتوفر لك بعد مغادرتك حلب».

كان فؤاد يسخر مني كلما قرأ في دفاتري بعض المقطوعات الشعرية:

«يا رجل... أنت نبع ماء وتظل عطشاناً؟!»

لو كنت قادراً على كتابة ذلك لأوقعت فتيات حلب كلهن في حبي.

حقيقة...

لم يحدث أن أحببت فتاة من قبل، ولم أكن واثقاً أنني سأكون ذات يوم عاشقاً.

كنت أتمنى أن أجد فتاة تحبني وأتبادل معها الرسائل والحكايات والمواعيد، وأقرأ لها ما أكتبه في دفاتري التي أسميتها «حبّات المطر.»

كنت أغبط فؤاد وهو يروي مغامراته رغم قناعتي أن أكثر تفاصيلها من صنع خياله. مرّة، سألته: «كيف يمكنني أن أجد فتاة تحبني؟»

قال: «الفتاة... لن تأتي إليك لتقول لك أحبك... اقرأ دائماً في عينيها... ما في قلب المرأة تجده في عينيها.»

كنت في الواقع أخشى الحديث إلى المرأة، وأشعر أنَّ لنظراتها أرجلاً كأرجل العنكبوت تمشي على وجهي، وتنزل إلى عنقي، وتتوقف عند الوريد، فينزُّ جسدي عرقا، فابتعد.

كان طاهر يشبهني في علاقته بالمرأة، يردّد مقولته الدائمة:

«الفقراء يليق بهم أن يحلموا لا أكثر.»

وكان يهمس لي بحكاية عشقه مع ابنة عمته سارة:

«هي حكاية حبٍّ من جانب واحد، لأن والدها بات غنياً وبقينا فقراء... هل تعتقد أننا سنخرج يوماً من فقرنا، ونعشق، ونتزوج، وننجب أولاداً سعداء؟ ألا تحلم أنت أن يكون في حياتك امرأة؟»

«نعم.»

* * *

كان «الحوش» الذي يسكنه أخي، يجمع بتصميمه العمراني بين القديم والجديد... تسكنه أسر من طوائفَ عديدة، وهذا التنوع فتح عقلي على قضايا لم أكن أعرفها من قبل، ورسّخت لدي قناعة، أن الرابط الاجتماعي يشكل البناء الأقوى.

كان الجميع في صباح الجمعة والأعياد يلتقون في ردهة الحوش لشرب القهوة. وتفيض الجلسة بالحكايات والمزاح والتعليقات الطريفة.

في عيد «البربارة» جاء الجيران من «الأحواش» الأخرى المجاورة.

ثمة فتاة ترتدي قناعاً يمثل حكاية أسطورية، كان جسدها جميلاً، وفستانها تزينه نقوش عديدة، وجدت نفسي أتابع حركتها، عندما رفعت عن وجهها القناع للحظات، ونظرت إليّ، أحسست بنظراتها تغلغل في روحي.

توسَّطت حلبة الرقص. وراحت ترقص... كانت نظراتها تدعوني... تمنيت لو أنني أعرف الرقص.

كان الخواجة «وانيس» يعزف على «جنبشه» ألحاناً حزينة تروي قصة مذابح الأرمن على يد الأتراك، ويتصاعد غناؤه الحزين وعزفه السريع، وتشتدّ حركة الرّاقصين وعندما وصل وانيس بعزفه إلى الذروة، راحت ترتبك أوتار «الجنبش»، وتوقف وانيس عن العزف.

نادته العجوز أمينة: «يا وانيس... لماذا سكتَّ؟»

ويغرق وانيس في صمته... وتعود أمينة إلى مناداته:

«وانيس... اعزف لنا أغنية «الخمار الأسود» أو أغنية «القراصيا.»

يسبل وانيس أجفانه، وينهض نحو غرفته... ويتجه إلى سريره للنوم.

يتفرَّق الجميع، وقبل أن تغادر الفتاة، التفتت نحوي، وابتسمت. ولوّحت بكفها وغادرت. لأول مرة تغلغلت ابتسامة امرأة في روحي.

تتأوه أمينة: «حزن الأرمن لا يتوقف.»

وتدخل غرفة نومها في الطابق الثاني المشرفة على ساحة الحوش لتتابع من نافذتها حركة سكان الحوش وهم ينصرفون إلى منازلهم... ليس من باب الفضول وإنما في محاولة منها لتمضية ليلها الذي غادرها فيه النعاس.

كانت أمينة تقتل ليلها الطويل بإطعام سلاحفها...

وبإعادة ترتيب محتويات بيتها وملابسها في خزانة قديمة مصنوعة من خشب الجوز، أو باستعراض صور أناس عرفتهم غاب معظمهم خارج الوطن أو اختطفهم الموت، فتفتح ذاكرتها وحزنها بصمت إلى أن تترك رأسها على وسادة قرب النافذة وتنام.

كان كل شيء في تلك المرأة يقول إنها من زمنٍ رومانسي...

مرة. قلت لها: «حدثيني خالة أمينة عن الماضي.»

ابتسمت شفتاها الذابلتان: كنت كوردة متفتحة في عزِّ الصباح

- ٢ -

رأيتها قادمة من أعلى الزقاق...

تبعثرت نظراتي على وجهها وجسدها...

طويلة القامة...، حنطية اللون...، ذات شعر أسود طويل ينزلق على ظهرها كذيل حصان، وثمّة غرة صغيرة تنام على جبهة مرتفعة ممشوقة كعمود من الضياء، تشعّ حيوية وأنوثة. أرعشتني نظرتها على وجهي وهي تقترب مبتسمة:

- «مساء الخير.»

وارتعش صوتي «مساء الخير.»

اتسعت ابتسامتها: «أنا جويل... التقينا في عيد البربارة، هل تذكر؟»

«نعم.»

ارتعشت أصابعي وأنا أصافحها. كان لجويل رائحة النرجس البري، تملكني ارتباك، أظنها قرأت ذلك في وجهي وهي تتأملني. وهذا ما زادني ارتباكاً.

قالت: أصابعك باردة.

حقيقة... لم تكن أصابعي وحدها باردة وإنما قلبي وروحي...، كنت أرتعش، وأحسست بالخجل...، قلت: «الصباح بارد.»

ضحكت... ولم تعلّق.

* * *

مرّ الليل بطيئاً... نبت الصبح ولم يغادرني وجهها.

صباحاً... تعجّلت في التحرّك نحو مدخل الزقاق كنت عازماً على رؤيتها وهي في طريقها إلى المدرسة، وقرّرت التحدث معها بشجاعة، كتبت مقطعاً نثرياً، وصفتها بنجمة الصباح تتدلى كثريا من الكريستال من أفق فوق جبال تكتنفها زرقة، وضباب بخاري، وضياء يتفتح من خلفها معلناً مجيء النهار.

سطع وجه جويل من بعيد... راح الضياء يملأ الزقاق المقفر. قلت: هي فرصة... مشيت نحوها متظاهراً أني قادم من الشارع الآخر، وعندما صرت في مواجهتها. بادرتها:

«صباح الخير.»

«صباح الخير...» وابتسمت.

على الرغم من أنني أمضيت الليل أخطّط لما سأقوله وحفظته عن ظهر قلب نسيت ما حفظته من عبارات، وتركت الورقة المكتوبة بين أصابعي مبلّلة بالعرق وتابعت طريقي، وأظنها اكتشفت ذلك، فالتفتت وراءها، وابتسمت ابتسامة أحسست بها ابتسامة ساخرة.

تعددت لقاءاتنا السريعة في الزقاق، وفي الشارع المؤدي إلى مدرستها. في كل مرّة كنت أبحث عن جرأتي المخبوءة خلف الخجل والخوف، لأصارحها بمشاعري... وكنت أفشل.

أخبرت فؤاد بما أشعر به نحو جويل وكيف أرتبك كلما التقينا.

كعادته... سخر مني «ازرع همسك في روحها، الفتاة تحب الهمس العاشق.»

قلت: «هنا المشكلة.»

* * *

كان شهر شباط بارداً والمساء معتماً.

التقينا في النقطة التي تفصل بين «الحوشين» مصادفة...

ثمة عتمة يوشيها ضوء مصباح ينوس في آخر الزقاق الطويل الضيق... بادرتها بالتحية، وكلي تصميم على محادثتها... حييتها «مساء الخير.»

ردّت «مساء الخير.»

وقفنا متقابلين، وساد صمت، تذكرت وصية فؤاد.

تجرّأت، وسألتها: «ما رأيك أن نجلس هنا على هذا المقعد الحجري؟»

لم تسألني لماذا، ولم تطرح أي سؤال، جلست وكأنها تنتظر تلك الدعوة، بقيت واقفاً إلى جوارها أتأملها، رفعت وجهها وسألتني:

«ألا تريد أن تجلس؟»

كان المقعد يتسع لاثنين بصعوبة. أفسحت مجالاً لي.

استطلعت ساحة الحوش والزقاق... كان الصمت يخيّم على كل شيء... كنت أخشى أن يراني أحد جالساً إلى جوارها، شدني صوتها:

«تعال، ألا تريد الجلوس؟»

قَرَأتْ ارتباكي... قالت: «حدثني عن البحر.»

بطلاقة... حكيت لها عن البحر والزوارق والنوارس والشاطئ والصيادين ومقاهي الصيادين، وعن أولئك الذين يبحرون ولا يعودون، وعن البحر عندما يغضب.

قالت: «هل ستأخذني ذات يوم إلى البحر؟»

«سأفعل.»

«هل ثمة فتاة تتذكرك هناك؟»

لماذا تسأل جويل هذا السؤال، أتريد أن تعرف إن كانت في حياتي فتاة غيرها؟

في الواقع ارتحت لسؤالها، يقيني أنه نوع من الاعتراف بحبها لي.

أقسمت لها أن ليس في حياتي امرأة.

ماذا لو صارحتها أنها الوحيدة في حياتي... فؤاد نصحني «كن جريئاً في اعترافك للمرأة التي تحبها.»

وقفنا متقابلين تماماً وهي تهمّ بالمغادرة، أحسست بأنفاسها تلفح وجهي، كل ما كنت أفكر به في تلك اللحظة أن أترك

رأسي على صدرها، وتجاوز هذا الصمت المتراكم في روحي، والاعتراف لها بحبي.

السؤال الذي باغتني وهي تتحرك الخطوة الأولى نحو الباب الرئيس:

«هل كنت سعيدا بلقائنا؟!»

أومأت برأسي، ولكن صوتي لم يتحرك إلا عندما تخطت الباب، وابتعدت...

قلت بما يشبه الهمس «نعم.»

تعددت لقاءاتنا عند بوابة الدار...

كانت تتم مساء في وقت يكون فيه سكان الدار خلف أبوابهم، كنا عند سماع أي حركة أو صرير باب... نهرب، ويذهب كل منا نحو منزله.

كان آذار في أوله.

* * *

كان المساء بارداً، يُنذِرَ بهواء صقيعي قادم من الشمال وكانت جويل تجلس إلى جواري على المقعد الحجري... اقتربت مني

حتى التصقت بي وطوقت عنقي بيدها، لامست شفتاها وجهي، توغلت شفتاها إلى شفتي، وعنقي، قلت:

«قد يأتي أحدهم ويرانا.»

ضحكت «هل تخاف؟»

كان جسدي يرتعش، تذكرت كلام فؤاد، «الحب يحتاج إلى فارس وليس إلى جبان، الخوف صقيع الحب» وبقيت أرتعش... وشفتاها تمشيان على عنقي.

كانت جويل «تصغرني بعامين؛ لكنها كانت أكثر جرأة مني. لم أنجح في الخروج من ارتباكي كلما التقينا، أظل مرتبكاً، وخجولاً، وكنت عندما نفترق، أعود إلى تفاصيل كلماتها، وهمسها.»

تعودت كتابة مشاعري نحوها، ولم أنجح بالخروج من ارتباكي ومبادرتها بكلمة تشعرها أن قبلاتها تمشي في دمي.

قالت تعليقاً على ما كتبته في دفتري:

«ليتك مدهش في الكلام كما أنت مدهش بما تكتب، لماذا لا تقل لي ذلك ؟»

وتضحك «اخرج من قرويتك الخجولة.»

وتتسع ضحكتها أكثر «أحب قرويتك معي.»

* * *

أحببت مدينة حلب وحارتنا والزقاق الذي أتبادل فيه مع جويل تحية الصباح وتلويحة الأيدي والابتسامات التي تزهر كعرائش الياسمين التي تتسلق جدران حوشنا، وأحببت الحوارات السياسية التي كانت تدور في ندوة دار المعلمين رغم أنها كانت أحياناً تتجاوز خطوط الهدوء لتصل إلى النزق.

كان الموجه رشيد يأتينا أحياناً إلى الندوة، وعلى الرغم من المهابة التي نشعر بها نحوه، ينفلت الحوار السياسي بيننا ويصل إلى التفجر، ويصير الكلام نزقاً وحاداً، ويتدخل الموجّه رشيد بهدوء، ويخاطبنا بلغة الرجل الحكيم «الحوار النزق يعلن عن مستوى التخلف الذي لم ننجح في تجاوزه... الوعي هو الإيمان بالرأي الآخر.»

كانت الأحداث السياسية تتحرك بشكل دراماتيكي، وكان الموجه رشيد يدفع بالطلاب للقيام بمسيرات تأييد للحدث أو

لرفضه. كان لديه إيمان أن تلك المشاركات السياسية أهم من التعلم، فيقول:

«لدينا متعلمون، وليس لدينا من يتقن التعامل مع الحدث السياسي.»

وكان أحياناً يطالبني بكتابة كلمة من صفحة واحدة لإلقائها في تلك المسيرات، وعندما يقرأ تذمري يهزني من كتفي بحب:

«أريد أن أراك مميزاً، ما الذي ينقصك، لديك الوعي، والقدرة على صوغ أفكارك ومشاعرك، كان أخوك قبل أن يغادر السياسية مميزاً.»

تجرأت وقلت: «إلا مشاعري.»

سأل: «ماذا تقصد، هل مشاعرك تجاه الأحداث غير صادقة؟»

ولأنني وجدت نفسي في قفص الاتهام، ابتسمت، وقلت:

«أقصد في الحب.»

ضحك «كلنا كذلك، بتأثير تربيتنا.»

عندما أصدر رشيد ديوانه الشعري الأول، أهداني النسخة الأولى.

وكتب على الصفحة الأولى «إلى برعم بعثي، أهدي ديواني.»

ومن أجل ألا يرى أخي الإهداء، مزّقت الصفحة، لم يعجب أخي وجود الديوان معي، قال لي وهو يقلب صفحاته: «أعرف صاحبك رشيد، لا أنكر أنه إنسان جيد ونقي، أنا أعرفهم كلّهم. رشيد رجل أحلام كما كنت يوماً، أخشى عليك من عدوى أحلام رشيد.»

-٣-

منذ الصباح كانت إذاعة دمشق تبثُّ الأغاني الوطنية.

وبين الحين والحين يخرج المذيع ببيانٍ يتهَّم فيه التجّار بالخيانة لإغلاقهم الأسواق التجارية احتجاجاً على بعض الإجراءات الاقتصادية.

نصحني أخي بالبقاء في المنزل «قد تتطور الأحداث، البقاء هنا أفضل.»

تتأجج أشواقي إلى جويل... وقفت بباب الدار وناديت العمة أمينة لعل جويل تسمع صوتي في الحوش المجاور... وهذا ما حصل فعلاً. جاءت جويل مسرعة، سألتني: «لماذا تنادي على أمينة؟»

قلت: «مشتاق رؤيتك.»

«أمي هنا، والجميع هنا.»

«ولكنني أريد رؤيتك.»

«نلتقي عصراً في الحديقة العامة.»

جاءني صوت أمينة «ماذا تريد.»

قلت: لا شيء.

عندما رأت جويل إلى جانبي هزّت برأسها، وضحكت، وقالت: «شياطين.»

قالت جويل: «أراهن على أن العمة أمينة تعرف ما يجري بيننا، فهي لا تغادر نافذتها ليلاً ونهاراً تراقب حركة سكان الحوش.»

رفعت يدي للعمة أمينة، وفعلت جويل مثلي.

جاءنا صوتها: «تشبهان طائري يمام.»

* * *

عصراً...

مشيت في شارع «بارون» المزدحم بالمتاجر ودور السينما، توقّفت أمام متجر لبيع العطور، ثمة زجاجات عطر بأشكال

وألوان عديدة على رفوف أنيقة، ومضاءة بالنيون... أذكر... أن جويل سألتني ذات مساء عن عطري المُفضّل.

بصراحة... لم أكن أعرف أسماء العطور، هربت من السؤال ورحت أحدثها كيف تضع أمي أوراق الغار بين ملابسنا وتحت وسائدنا... سألني صاحب المحل «تفضل، هل تريد شيئاً.»

أمعنت النظر في زجاجات العطر التي تزدحم على الرفوف، عاد البائع يسألني:

- «أتريد شيئاً؟»

- «نعم.»

- لرجل أم امرأة؟

لم أكن أعرف أن ثمة عطراً للرجال وآخر للنساء. لهذا ارتبكت قلت بصوت خجول: لامرأة ...

عاد يسأل: «لامرأة تحبها؟»

- «وهل يهمك هذا؟»

ابتسم... «لا تفهمني خطأ... أقصد مساعدتك باختيار العطر.»

قلت له : «لامرأة.»

«ما رأيك بعطر الكاردينيا... عطر راق ويعبر عن رقي صاحبه؟»

لم أكن قد سمعت من قبل بعطر الكاردينيا أو بزهر الكاردينيا، ولكي لا أشعره بجهلي، قلت له: «عظيم.»

أمسك بزجاجة سماوية اللون... ملأها عطراً وقام بتغليفها بورق زهري، ولفها بشريط أحمر... «تفضل.»

كانت قناعتي أن جويل ستفاجأ وربما ستقول كما قالت في آخر لقاء:

«بدأت تخرج من قرويتك.»

في طريقي إلى الحديقة العامة مستعجلاً الخطى للقاء جويل ارتطم كتفي بكتف الرفيق رشيد هزني صوته: بماذا يسرح فكرك؟

«لا شيء... أنا آسف.»

أصرّ على أن نشرب القهوة في مقهى قريب. قال: «أريد التحدُّث معك. أنت أكثر الرفاق الذين أحب محادثتهم كونك مميزاً. قرأت مقالك في صحيفة الجماهير. ملاحظتي... أنك

تكتب بلغة حادة لتكن عباراتك رشيقة... هذه نصيحة قدّمها لي ذات يوم أحد أبناء بلدكم واسمه عامر... هل تعرفه؟»

«لا.»

«أتمنى أن تتعرّف عليه هو المسؤول الحزبي في مدينتكم...»

«كان زميلي في الجامعة وزميلي في السجن فيما بعد...»

راح رشيد يحدثني عن الأوضاع السياسية المضطربة في البلد وأن التجار يتآمرون مع الرجعية على الدولة. كان فكري مع جويل في الحديقة. قلت: «سأعتذر منك، هناك من ينتظرني.»

«فتاة؟»

«لا... صديق.»

«تعال غداً لأعطيك كتاباً عن العلاقة بين العروبة والإسلام.»

كان الجنود ينتشرون في الشوارع وعند مدخل الحديقة وفي وسطها وكانت حركة الناس في الشوارع بطيئة وثمة متاجر كثيرة أغلقت أبوابها. كل شيء كان يشعر بأن الأوضاع متوترة، وقابلة للتفجرّ كما قال رشيد... بدت الحديقة العامة شبه خاوية على غير عادتها، سألني جندي: «إلى أين؟»

قلت: «ثمة من ينتظرني في الحديقة.»

من بعيد رأيت جويل تقف عند أطراف البحيرة تتأمل طيور البط.

قالت عندما اقتربت منها: «خشيت ألا تأتي.»

«جئتك كطائر نورس عاشق.»

راحت تضحك ونحن نتأمل طيور البط التي تسبح في بحيرة الحديقة، سألتني: «هل تعيش طيور البط في البحر؟»

قلت: «تعيش طيور النوارس.»

- «أتشبه البط؟»

- «تشبهك... جميلة ورقيقة.»

قالت: «أنا أشبه البجعة... هكذا يقول أبي عني.»

تشابكت أصابعنا عند منعطف جانبي مظلّل بالأشجار.

وجدتها فرصة لتقديم زجاجة العطر قلت: «هديتي لك.»

أمسكت بالعلبة وراحت تنتزع الشريط الوردي والورق الملون...

رشّت قليلاً من الزجاجة على مؤخرة عنقها وفاح عطر الكاردينيا، ثم قالت: «سأقبلك.»

ثمة جندي كان يقف على مقربة منا وينظر إلينا... أحسست بنظراته تلتصق على وجهي «جويل... الجندي ينظر إلينا.»

طوقت بذراعها اليمنى عنقي وقبلتني وضحكت «فلينظر إلينا إلى أن يتعب.»

اقتربت منا فتاة سمراء متوسطة القامة على وجهها طيبة فتاة قروية. قالت: «عذراً أنا عفراء صالح... طالبة سنة أخيرة في دار المعلمات... أحببت السلام عليكما. هل يبدو سلامي مستغرباً؟ لا تستغرب. أتذكر أننا التقينا من قبل؟»

«لا.»

«لا، التقينا... قبل شهر من الآن، كنا قادمين معاً من اللاذقية... كان مقعدي قريباً من مقعدك وإلى جانبك زميلك فؤاد ابن خالتي... أنا وفؤاد لا نتحدث مع بعضنا بعضا لخلاف سببه أخوه مع والدي... المهم سمعت حوارك عن الوطن، أعجبت به، عندما رأيتك اليوم أحببت التعرف عليك.»

قدّمت لها نفسي ... وسيم الجبلاوي.

وقدمت جويل نفسها «جويل.»

سألتني عفراء: «أهي قريبتك؟»

أجابت جويل سريعاً: «أنا خطيبته.»

كانت عفراء قصيرة القامة، سمراء، ذات ابتسامة جميلة، أخبرتنا على الفور أنها مخطوبة لضابط في الجيش، وأنهما سيتزوجان في أول الصيف. بعد تخرجها هذا العام في دار المعلمين.

أكانت عفراء تريد أن تُفهم جويل أنها لا تريد أن تقتحم حبنا وحياتنا؟

وقبل أن نفترق، قالت عفراء: «أنا هنا في عصر كل جمعة أجيء إلى الحديقة، هي المكان الوحيد الذي أشعر فيه أنني خرجت من سجني.»

قالت جويل ونحن نبتعد عن عفراء: «هل أرادات أن تواعدك لملاقاتها بقولها إنها تأتي إلى الحديقة؟»

قلت: «أهي الغيرة؟»

ردت بحزن: «لا... وعلى ماذا أغار؟»

«إذاً. لماذا أخبرتها أنك خطيبتي؟»

«هل أسأت إليك؟»

أمسكت بذيل شعرها ممازحاً «أنت مشاغبة.»

استدارت نحوي، مسحت بأصابعها شعري، وتسللت سريعاً إلى وجهي، وعنقي. قلت: «نحن في الشارع.»

«وإذا؟»

كان وجهها يشع ببهجة كبيرة، قالت: «سأكتفي بقبلة سريعة على خدك.»

وقدّمت لي أيقونة صغيرة عليها صورة السيدة مريم:

«لتكن العذراء شاهدة على حبنا.»

«هي شاهدة.»

«هل ترافقني إلى الكنيسة؟»

مشينا فرحين إلى كنيسة في أول شارع العزيزية.

كان مذبح الكنيسة مضاءً بألوان عديدة، أحسست بالمهابة نفسها عندما دخلت مقام السلطان إبراهيم في مدينتنا، توقفنا

أمام صورة مريم العذراء، كنت مأخوذاً بمهابة الصورة، والأيقونات التي تنتشر على الجدار، لا شيء كنت أفكر به في تلك اللحظات سوى تلك المهابة التي تتملكني، أمسكت جويل بيدي وسألتني: «ما بك؟»

جمد جسدي، بدت مريم ملاكاً بجناحين يفيض وجهه بالنور، وينسكب في فضاء الكنيسة. سألت جويل: «ما بك؟»

لم أجبها، ومشيت نحو الباب الخارجي، ومشت جويل إلى جانبي تمسك بيدي، سألتني من جديد: ما بك؟

لم أرد، كنت على عجل للخروج إلى الشارع، ربما للخروج من حالة راحت تتملكني ...

- ٤ -

كان لقائي بعفراء مصادفة هذا المساء.

كنت خارجاً من الحديقة العامة، وكانت تهمّ بالدخول إليها.

قالت: «وكأننا على موعد.»

«المصادفة أفضل من الموعد.»

رحت أتأمل ابتسامتها، فيها كثير من ابتسامة أختي الكبيرة، وكانت توقظ بي حالة من المشاعر لا أعرف تفسيرها أبداً، في وجه عفراء أشياء تميزها عن غيرها من النساء، ربما لشعوري أن وجهها أشبه بلوحة فيها وجه امرأة قروية، القرويات في وجوههن نقاء يتوهج، وفي ابتسامتهن وعيونهن وكلماتهن طيبة وبساطة وصدق.

كان في رأسي سؤال، «عن خلاف أهلها مع أهل فؤاد.»

ترددت في طرح السؤال، قالت: «وسيم أنت مرتبك، هل تريد أن تقول شيئاً؟»

أكانت عفراء تقرأ ما في رأسي، قلت: «ثمة أفكار تتنقل قافزة بين غابة أسئلة.»

«قل ما تريد.»

سألتها: لماذا اهلك وأهل فؤاد على خصام«هل تريد أن تعرف، ولماذا؟»

«ربما هو الفضول.»

قرأت في وجهها أن السؤال فاجأها، لهذا لم ألحّ عليها لتقديم إجابة، لكنها بعد تأمل وجهي للحظات بصمت عادت وسألتني: «هل يهمك أن تعرف؟»

قلت: «كما تريدين.»

«سأخبرك. هو موضوع له حساسيته والحديث بيننا.»

- «وعد.»

- «أخوه أحمد كان وراء اعتقال أبي مرّتين بتهمة الانتماء إلى الحزب الشيوعي، وتسبّب ذلك بطرده من العمل في التعليم. لم يكن وقتئذ أبي شيوعياً، ألا يقولون قطع الأعناق ولا قطع

الأرزاق. أبي يعمل اليوم عامل بناء لنعيش، ماذا لو كان لأي منا حرية اختيار نهجه السياسي، ها أنا... لست شيوعية كأبي، ورغم ذلك طالتني الأسئلة، الرفيق رشيد المسؤول الحزبي عندنا دافع عني، هل الثورة تعني محاربة الناس بحريتها ولقمة عيشها؟»

«أبداً.»

«الثورة يقتلها الحمقى.»

«أليس ثمة سبب وأنتم أقرباء؟»

«السبب الحقيقي أنه طلبني ورفضته.»

«رفضته من أجل خالد؟!»

«من أجل نداء قلبي.»

كان في يدها كتاب بعنوان «تحديات الأمة.»

سألتها: «أتحبين المطالعة؟!»

«نعم.»

عادت وتمنّت عليّ ألا أتحدث بما قالته لي عن أحمد شقيق فؤاد.

«قد يعود به أحمد إلى السجّن، وتحت عنوان آخ.»

* * *

تكرَّرت لقاءاتي مع عفراء ...

نلتقي أولاً في الحديقة العامة، وبعدئذ نتحرك باتجاه المدينة أو نذهب إلى مقهى قريب في مواجهة ساحة سعد الله الجابري لنشرب القهوة. كنت أشعر بتلك القوة الوطنية التي تسكنها. سألتها: هل لدى والدك هذه الحالة الوطنية؟

«ورثت مشاعري الوطنية عنه.»

«والماركسية؟»

«أي انتماء سياسي عليه أن يعمق علاقتنا بالوطن.»

زارتني في دار المعلمين لأول مرة، واعتذرت لأنها جاءت. قالت:

«وجدت نفسي بحاجة لرؤيتك.»

وغرقت في البكاء...« ما بك؟»

راح البكاء يخنق صوتها. قلت: «لا تبكي، الطلاب ينظرون إليك.»

قالت: «أعرف، أعتذر لأنني تسببت في إحراجك.»

«قلت لبعض القريبين من زملائي هذه أختي» ومشيت معها إلى مقهى قريب.

قلت ونحن نجلس: «اخبريني ماذا حصل؟»

أخبرتني أن خطيبها خالد أصيب في مواجهة مع العدو الصهيوني في الجولان. قالت كان بينه وبين الموت شعرة، جاءته الرصاصة إلى جوار قلبه، ونقل لخطورة إصابته إلى موسكو.

تركت رأسها على الطاولة، اندلق فنجان قهوتها، وغمرت القهوة وجهها.

قلت: تبلل وجهك بالقهوة.

«روحي مبلّلة بما هو أكثر مرارة وسواداً من القهوة.»

وجاء النادل، ليمسح القهوة. كان رأس عفراء لا يزال على الطاولة. قلت له:

«اتركنا.»

ابتعد النادل، وظل يرقبنا من بعيد .

رفعت عفراء رأسها، يصير وجهها كلوحة تراجيدية تتداخل فيها ألوان قوس قزح، ثمّة خصلة من الشعر المبلل بالقهوة

تنسدل على جبينها ووجهها، كنت مبهوتاً بحزنها، بدت جميلة كأيقونة في كنيسة مريم.

قلت: «سأمسح وجهك.»

لم ترد، أمسكت بمحرمة قماشية ومسحت وجهها وخصلات شعرها وعينيها وشفتيها، ثم راحت تبتسم، قلت: «ابتسمي حزنك يؤلمني.»

تُكرِّر على مسامعي: «أنت بمثابة أخي الأصغر.»

أكانت تريد أن تفهمني أن لعلاقتنا خطوطاً حمراء؟!

في هذه المرة قالت: «وحدها أمي من مسحت وجهي بكفها، وأنتَ الآن، هل تعرف ماذا يعني ذلك؟!»

أجبت كما أجيب في كل مرة، «أعرف، نحن أخوة»

* * *

كان نيسان في منتصفه، وعيد الجلاء بعد يومين. اتفقت مع عفراء على السفر لتمضية إجازة قصيرة في الساحل... «نحن في عطلة، ترتاحين قليلاً من حزنك، ونحضر احتفالات الجلاء»

عادة... أفراح عيد الجلاء تعمُّ الساحل السوري لأربعة أيام متتالية، يأتي الرجال والنساء بثيابهم الزاهية إلى أماكن الفرح، يدبكون، ويفرحون... ويغنون، وكثيراً ما تكون علاقات عشقية بين شبان وفتيات تنتهي في أغلبها بالزواج.

اتجهت مع عفراء إلى موقع الفرح في «الصنوبر»...

مكان يتوسط المسافة بين مدينتي جبلة واللاذقية، كان الاحتفال مزهواً بالفرح، والغابة مزهوة بأزهار الأكاسيا الصفراء، قالت عفراء: «ليت جويل معنا...»

«وسيم هل تحبها؟»

يفتح السؤال حزني، رحت أفكّر كيف لجويل أن تغادر مدينة حلب الباذخة بالروعة والجمال والرفاهية، وتأتي إلى قريتنا الفقيرة، وبيتنا الفقير؟! لا أعتقد أنها ستستطيع التأقلم مع تلك الحياة الشقية المتعبة.

سألت عفراء: «لماذا سكتَّ؟»

تنهدت، عادت تسأل: أنت لا تحبها إذاً ؟!

- «لا، أحبها، وأعشقها، وأظنني لن أقوى على عشق أخرى.»

- «أين المشكلة؟!»

- «هل يمكن لجويل أن تعيش معي حياتي الفقيرة؟!»

- «بالحب نتجاوز كل شيء.»

- «وهل يلغي الحبّ إحساسنا بالفقر والحاجة إلى حياة سعيدة. ظروفي صعبة، بيت ترابي وحظيرة أبقار وأغنام حول المنزل وأرض تلتهم جسد ودم وعرق أهلي، وفي نهاية العام، خبز جاف وثياب لا تحمي من البرد والحرّ.»

- «لا تقتل حبك.»

كنت أشعر أن الحوار حول مستقبل علاقتي مع جويل يرسم أمامي أفقاً أسود لأول مرّة، لهذا أحسست برأسي يتفجر، قالت عفراء: أنت متعب؟

وأصرّت على أن أرافقها إلى بيت أهلها... «الطبيب جارنا إن احتجته.»

«أنا بخير.»

«ستأتي»...

راح والدها «أبو لينين كما يحبّ أن يناديه الناس يحدثني عن الاشتراكية، وضروراتها في مجتمعنا الفقير الذي عانى من تاريخ

طويل، وأبو لينين لا يخفي انتماءه السياسي على الرّغم من أن الدولة تلاحق الشيوعيين.

يتحدّث بوجع واضح على وجهه وفي عينيه المتفخّتين، وبارتعاشة أصابعه التي لم تغادره منذ أن اعتقل أول مرة، قال بمرارة:

«الدولة تحاصرنا وتترك الوطن مفتوحاً للإخوان المسلمين.»

كان أبو لينين يعرف أبي كما أخبرني، قال لعفراء:

«والد وسيم مناضل، كان يقاوم الآغا في زمن عز الآغا. حاولت تنظيمه سياسياً، لكنه رفض، قال لي كلمة أعجبت بها «الأحزاب تنتِّج آغوات من نوع آخر»، هذا كلام كبير ومهم، مرّة قلت للمسؤول الحزبي عندنا، ما قاله والدك، استشاط المسؤول غضباً، فوق لا يقبلون النقد، ولا الرأي الحر، كثيرون في مجتمعنا أكثر قراءة للواقع من الذين يدعون النخبوية.

أهداني أبو لينين كتاب ما العمل؟ لـِ لينين.

قالت عفراء مازحة ونحن في الطريق إلى كراج مدينتنا لوداعي:

- «تعال نرميه، ونريحك من حمله.»

- «لا... هو هدية والدك.»

«والدي كغيره في الأحزاب، يعتقدون أنهم قادرون عبر إهداء الكتب تنظيم الناس سياسياً... كيف سينجح والدي معك، وقد فشل في جعلي ماركسية؟!... كل الأحزاب تمارس هذا النوع من الدعاية لأحزابها...»

وتضحك «كيف لشاب بعمرك أن يقرأ كارل ماركس، وإذا قرأه كيف سيفهمه، قلت مرّة لأبي أنتم خارج الواقع، حدِّثوا الناس عن أوجاعهم لا عن أوجاع وأحلام ماركس، هم لا يقبلون فكراً لا يلامس حياتهم، ومثل هذا الكلام قلته للرفيق رشيد، الجميع يعانون من المشكلة نفسها.»

أخبرتني عفراء أن خالداً عاد من موسكو، وهو بخير، ويريد الإسراع في زواجنا، قال « إنه لم يعد باستطاعته العيش وحيداً أقدِّر ظروفه، وأرى أن عليّ أنّ أكون إلى جانبه، وتمَّ الاتفاق على الزواج بعد انتهائي من الامتحان.»

وقفت قبالتي «ستكون معي، إلى جانبي، ألست أخي؟! وسأقدمك إلى خالد.»

- «شرف لي أن أكون.»

- «وأتمنى حضور جويل.»

- «يا ريت.»

* * *

تزوّجت عفراء من خالد، وانتقلت للسكن في دمشق، كان لدي شعور بالحزن على ابتعادها، كم أرتاح لحديثها ولهجتها الملائ بالحنان والتوجيه لي، حقاً... كنت أشعر بها فعلاً أنها أخت، وكان طاهر يستغرب مشاعري هذه، ويؤكِّد أن الصداقة بين رجل وامرأة في مجتمع شرقي حالة مستحيلة، وكنت أؤكّد لها أنها ليست أكثر من أخت، وهذا ما كنت أؤكده أيضاً لجويل عندما تناقشني بطبيعة علاقتي مع عفراء.

رحت أكتب إليها رسائلي، وكانت تردّ عليها، وأحياناً تكتب لي رأي خالد في القضايا التي نناقشها. ثلاث سنوات ونحن نتبادل الرسائل، كان فيها الحديث عن جويل طاغياً على معظم حواراتنا، وكانت عفراء تحتفظ كما قالت لي بكل رسائلي، وتضحك: «إن قررت يوماً أن أكتب رواية، ستكون تلك الرسائل روايتي وبعنوان مباشر«جويل.»

قبل مغادرتي مدينة حلب نهائياً بسبب انتهاء دراستي، كتبت إلى عفراء وأخبرتها أنني في أزمة وأنا أغادر حلب، التفكير بالابتعاد عن جويل مأساتي القادمة، واستمرار تلك العلاقة مأساة أشد، ولا أدري ما الذي سأفعله، أخشى أن تموت عواطف جويل نحوي إن رأت حياتي في قريتنا... أنت قروية وتعرفين حال القرى الفقيرة والناس الفقراء.

نصحتني «صارح جويل بوضعك...»

كتبت: «لا أجرؤ، سوف تصطدم بالواقع، جويل حساسة وتعيش حياة مدلَّلة، قرَّرت أن أغادر حلب دون أن أخبرها.»

ردت عفراء: ستكون صدمتها حادة وتتهمك بالخيانة مدى الحياة، المرأة تسامح على أي شيء إلا على الخيانة، «وهروبك سيكون خيانة مؤلمة لها ولك.»

حقيقة...

بتُّ في الآونة الأخيرة مع اقتراب تخرّجي ومغادرتي حلب، أشعر باهتزاز حاد كلَّما فكرت بأمري مع جويل، سألني الرفيق رشيد: «ما بك، لست وسيماً الذي أعرفه؟!»

هربت من الإجابة «لا شيء.»

- ضحك: «أنت عاشق، وجهك يقول ذلك.»

- أنكرت: «أبداً.»

- «قل نعم، قرأت ما نشرته في صحيفة الجماهير، النصّ أنبأني بذلك.»

- «أنت شاعر، قد يكون المضمون غير مرتبط بالواقع.»

- «في نصك كان المضمون صادقاً.»

* * *

عصراً... التقيت مع جويل في الحديقة العامة، كان في نيتي مصارحتها بما يقلقني، لم تفسح لي مجالاً للحديث رغم أنني كنت أنوي ذلك، كانت تنقصني الجرأة، ما تفيض به روحي من مشاعر نحوها جعلني في ارتباك، حدَّثتني جويل عن رسالة أبيها المهاجر في فنزويلا، قالت إنه يدعوها مع أمها للسفر إليه، وهي ترفض من أجلي.

- قلت: سافري إليه.

- تطلعَّت في عيني بحدة: «أتريدني أن أسافر فعلاً؟!»

- «أمازحك.»

تَرَكَت رأسها على صدري، وقالت: «حلمي أن أظلَّ إلى جوارك مدى الحياة.»

ركضنا كطفلين ضاحكين على العشب الأخضر رغم تحذيرِ حارس الحديقة لنا... وعلى مقربة من تمثال أبي فراس الحمداني توقفنا، أمسكت بيدها وأنا في مواجهتها، نظرت في عينيها، قلت إنها اللحظة المناسبة لمصارحتها، راحت نظراتها تتفتح في روحي كأزهار النرجس المبللة بالندى الصباحي... وراح حبي يفور، تساءلت بحزن. «كيف لي أن أقتل هذا الحب؟!»

تنسكبُ ضحكاتها في روحي، خطر لي أن أحتضنها، ولأن أمنياتي اصطدمت على الفور بواقعي... وتفكيري بما سيكون مستقبلنا، انكمشت أحاسيسي، وشعرت بقلبي يعتصر.

نام رأسها على صدري، وهمست: «وسيم... سأموت لو ابتعدت عني...»

كانت كلماتها تستنهض حكايتنا على مدى أربع سنوات، عندما خلعت معطفها، وغمرت رأسي، وقبّلتني ونحن في مدخل الحوش، قبل أن نفترق كلّ إلى بيته، أخفى المعطف دمعة نزفت من عيني.

* * *

لم أتوقعَّ مجيء والدة جويل إليّ... طالبتني بالابتعاد عن ابنتها، قالت:

«أنا أعرف أنك ستغادر حلب قريباً ونهائياً، وأنك ستأخذ جويل معك...»

- «وسيم... سأقتل نفسي، قبل أن يقتلني كلام من حولي، جويل كل حياتي، لا تجعل نهاية حياتي على يدك.» وراحت تبكي بحرقة: «أقبل يديك، وقدميك ابتعد عن جويل، هي ترفض الابتعاد عنك، جئتك كأم، لا تقتل فرح حياتي مع جويل.»

تنهدت، كان المشهد مؤلماً، وعندما انهارت على الأرض، انهارت أعصابي معها، وأحسست بحالها، وعدتها بالابتعاد عن جويل.

- «وعد؟!»

- «وعد، وحياة أمي.»

* * *

مضى عام كامل على التحاق طاهر بالكلية العسكرية، كان عشقي يومذاك لجويل السبب برفضي الالتحاق بالكلية

العسكرية كما فعل، كتبت إليه أسأله: «كيف لي أن أتصرف مع جويل ؟!»

- أجابني «تمسَّك بها، أتمنى لو في حياتي امرأة كجويل.»

- «وظروفي، ووعدي لأمها؟!»

- «لا تكن قاتلاً لهذا الحب، أعرفك رجل مبادئ، لا تخن مشاعرك .»

- قلت: «ليتني لم أعشق جويل.»

- «يمكن أن يكون عشقك لجويل هو فرح حياتك كلها.»

* * *

كان شهر حزيران في أوّله، وكنت أتهيأ لمغادرة حلب نهائياً في الصباح.

رحت أدور، وأدور في شوارع حلب وحاراتها، كان وجه جويل معي، وأحسست برغبة شديدة بالبكاء ، عندما عدت إلى الحارة، وجدت جويل بانتظاري، قالت: «دعنا نلتقي عصراً في الحديقة العامة، أريد أن أعرف ما الذي سنفعله!»

كنت على يقين أن قلبها يحدّثها أني أخفي عنها أمراً، منذ شهر تقريباً ما انفكت تسألني كلما التقينا: «ماذا تخفي عني، في وجهك قلق!»

وأتجاوز أسئلتها بالنكران، فتقول: «وسيم ... انظر في عيني.»

وأتطلع في عينيها، تضحك: «افتح عينيك جيداً» فأرتبك، فتقول «فيهما قلق.»

كانت جويل مُصرّة على اللقاء في الحديقة، وكنت مُصرّاً على الرفض، قلت لها:

«نلتقي في يوم آخر، لدي أعمال كثيرة سأنجزها اليوم.»

- «أشعر أن أمراً ما في رأسك، قله واسترح!»

بقيت صامتاً... هزتني من كتفي: «قله واسترح».

- حقيقة...

كان في رأسي أكوام من الكلام والضجيج والحزن والضعف... والبكاء، وأخيراً تظاهرت أنني وافقتها على اللقاء، قلت «نلتقي عصراً ونتحدث.»

سألني أخي: «ما الذي يحزنك؟»

«لاشيء»

كان ظني أنه يعرف قصّتي مع جويل، لكنه لم يناقشني بها ولا مرة، ولم يشر إليها تلميحاً في أي حديث بيننا، أكان يظنها حالة مراهقة؟! تمنيت في تلك اللحظة أن أصارحه بما أعانيه، تردَّدت، طريقته في الحديث معي كانت تقيم حاجزاً بيننا، قال: «سأدعوك للعشاء بمناسبة مغادرتك حلب غداً.»

طوال وجودي في المطعم بقيت صامتاً قال أخي:

«إن كنت حزيناً على مغادرة المدينة لا تسافر.»

بعد العشاء، استعجل الذهاب إلى النوم. كنت أودّ أن أصارحه بأمر جويل، أظنه اعتقد ذلك، فأراد الهروب إلى النوم.

في الصباح تأملني وهو يبتسم، أربكتني ابتسامته، أتراه قرأ ما في داخلي؟!...

احتضنني وهو يودعني، وقال: ابدأ حياتك هناك، حلب ليست مدينتنا... والمؤقت لا يصير دائماً ، علينا أن نفهم الواقع.

أجبته بإيماءة من رأسي«صحيح.»

كنت أقرأ في كلماته وعينيه أنه أراد أن يجيبني على أسئلة كانت تدور في رأسي في تلك اللحظات.

* * *

سألني الرّجل الجالس إلى جانبي في السيارة المتجهة إلى اللاذقية:

«ما بك، هل أنت متعب؟»

كان وجه جويل يتأرجح كزجاجة مربوطة بخيط... ويهتز صوتها:

«أكنت طوال أربع سنوات تمثِّل عليَّ دور العاشق...؟!».

كاد رأسي ينفجر، اعتصرته بين كفي... يعلو صوتها، يعلو، يعلو، يصير كلامها صراخاً: « قل... قل... قل... أنت...»

كان خطر لي مرّات أن أخبرها ما حدث عندما جاءتني أمها باكية... متوسِّلة لأبتعد عنها، قالت بصوت مذبوح بالألم: «جويل وحيدتي وكل عالمي، عشت من أجلها... ماذا سأقول لوالدها المغترب إن تزوجت بمسلم، وماذا سيقول الناس وأقربائي، والكنيسة...؟!»

وسقطت في غيبوبة، ارتبكت، نثرت الماء على وجهها، وعندما استفاقت، قالت متوسلة باكية «بحق القرآن والإنجيل، ابتعد عنها.»

تهزّ جويل صمتي: «قل لي ماذا تخفي عني، اعترف... قل إنك لا تحبني.»

كنت أحسب نفسي أغرق في بحر هائج والتيار يمسك بي ويسحبني نحو القاع... واللون الأسود يتحوّل إلى شباك تحيط بي، أحاول التخلّص منها وأنا أتنفس بصعوبة، ويضيق صدري.

يأتيني صوت الرجل: «هل أنت مريض؟»

راح التيار يسحبني نحو العمق أكثر، رأيت جويل كشبح يتراقص في بحر من العتمة وتناديني مستغيثة، لم تستطع يدي الامتداد نحوها، ثمَّة أسلاك ناتئة تشكل حاجزاً، أمسك بي صوت الرجل الجالس إلى جانبي «ما بك؟»

أحسست برغبة بالتقيؤ، ورحت أستنشق الهواء بصعوبة، قلت لسائق السيارة :

«توقف.»

ترّجلت وترّجل معي الجالس إلى جواري، وأمسك بيدي كي لا أسقط،

قال لي: «تنفس بعمق.»

رحت أتنفس بعمق، وأنا أتطلع نحو حلب... كان وجه جويل يتسع كغيمة على امتداد الأفق...

وتساقط مطر أسود.

- ٥ -

تتحرّك جويل في رأسي كرّقاص الساعة...

وثمّة شعور لا يغادرني كشرطي حاد الطباع يتهمني بأنني مارست القتل على جويل، كلام طاهر كان في مكانه عندما قال: «حتى الحب يقتل، وربما هذا النوع من القتل هو أقسى أنواع القتل إيلاماً.»

خَطَرَ لي أن أبحث عن حبٍّ جديد لنسيانها، كما نصحني فؤاد: «وسيم... ستظل في حزنك إلى أن تخرج من هذا الحبِّ بحب جديد». حاولت أن أتحدَّث إلى فتاة عرّفني عليها فؤاد وهي عائدة من الجامعة، كانت لطيفة، وابتسامتها حلوة، وقالت لفؤاد فيما بعد: «إنها ارتاحت لي» لكنني لم أستطع أن افتح قلبي نحوها، ولم أستطع أن أقول لها كلمة ناعمة في لقائنا الثاني، قالت لفؤاد «صديقك جلف.»

كتبت ذلك إلى طاهر في رسالة، كان رد طاهر موجعاً: «ذنب جويل... أنها أحبتك، فقتلتها...»

ردَّ طاهر زاد من حزني، ومن احتقار لتصرُّف، تذكرت قول فيلسوف صيني، «أقسى حالات التأنيب احتقار الإنسان لنفسه.»

في رأي طاهر: «الحب لا يقتل بذريعة الخوف من الفقر، كانت جويل مستعدة أن تناضل معك لتجاوز الفقر، هل سألتها رأيها في أمرك؟!.. ألم تقل لي أن عفراء عجّلت زواجها من خالد بعد إصابته لأنها أحست بحاجته لوجودها إلى جانبه، هل هناك أجمل من هذا الشعور، كانت جويل في رأيي مستعدة أن تعيش معك على حصيرة من القش.»

كانت أمي تقرأ حزني في وجهي، وفي صمتي، وشرودي الدائم، وتسألني بين الحين والحين: «ما الذي يحزنك يا بني؟!».

وأجيبها: «أنا بخير يا أمي.»

وتهز أمي رأسها في إشارة لعدم اقتناعها بقولي، وتقول: «قلب الأم لا يكذب، ثمة أمر يحزنك، قل ما بك؟»

كنت أعرف مسبقاً أنها ليست قادرة على مساعدتي، فقط... ستبوح بحكايتي لأبي الموجوع بوضعه المادي أيضاً، وعندئذ

سيأتي إليّ لإلقاء محاضرته عن واقعنا السيئ، وأنَّه لم يعد باستطاعته مساعدتي، بعد أن قام بقسمة الأرض على إخوتي، ويتنَّهد تنهيدته الموجوعة التي ترسم على جبينه تجاعيد الزمن والتعب والأحلام المهزومة: «بتَّ كخلية نحل أفرغت من عسلها مع كل طرد غادرها.»

كنت كلما فكرت كيف سأبني منزلاً متواضعاً من غرفة واحدة، أو كلما تساءلت: «هل سيمكنني ذات يوم أن أحب امرأة أخرى غير جويل؟ أصاب بالمرارة، وتعتصرني أفكار سوداء وأشعر أن للعالم من حولي جدران تضيق، وتضيق، فأشعر بالاختناق.

قال فؤاد: «أنت تعذب نفسك، يا رجل، انس واقعك، وانسَ جويل، لا تقتل نفسك من أجلها، ماذا باستطاعتك أن تفعل؟! اعتبر ما حدث تجربة، في المستقبل ستنبت الفتيات في طريقك كما تنبت الهندباء على حواف طرقاتنا.»

- قلت ساخراً: «أبهذه البساطة؟!»

- «وأكثر من ذلك.»

كانت الرسائل المتبادلة بيني وبين طاهر تمنحني بعض الرّاحة، صحيح أن فؤاد قريب مني جداً، والعلاقة بيننا تصبح

أكثر قوة بمرور الزمن، لكنّني كنت أرتاح لآراء طاهر، فأكتب إليه بين الحين والحين... وأحدثه عن افتقاري إلى الأصدقاء، والصديقات، وأنني أبدو كوحيد في جزيرة منعزلة، لها جسر واحد هو فؤاد فقط... والرفيق عامر، وكتاب المطالعة، قلت له: «طاهر... أنت لا تعرف عامر، رجل رائع، مثقف، ومبدئي، ويجهد نفسه في سبيل إعدادي سياسياً... هو أستاذي السياسي.»

نما لدي شغف كبير بقراءة الكتب السياسية، كان الرفيق عامر كما أناديه وراء زيادة هذا الشغف الذي أشعله بي رشيد من قبل، وربما أخي الذي دفعني للمطالعة عامة، كان يقول: «السياسة ليست لنا، وعلى الرغم من ذلك لا بدَّ من القراءة السياسية، على الأقل لنفهم علاقتنا بالوطن والناس.»

كنت أحضر الاجتماع الحزبي الأسبوعي الذي يقوده الرفيق عامر، أستمع إلى الحوارات بين الحضور... كان لدي شعور أن ما يحرك تلك الحوارات هو الاندفاع العاطفي... وربما المصالح والرغبات الخاصة، كتبت إلى طاهر أسأله:

«هل الاندفاعات العاطفية، تشكل الانتماء الصحيح ؟!»

ردّ طاهر: «لماذا لا تسأل أستاذك السياسي؟»

عندما سألت عامر أجابني: «إن لم يتحول الانتماء العاطفي إلى انتماء فكري يصبح الانتماء حالة من التعصب الذي يُفقد الانتماء روحه وأصالته.»

تخرّج طاهر في الكلية العسكرية ضابط مدرعات، وتسلّم مهمة قائد دبابة من نوع جديد وصلت حديثاً من الاتحاد السوفييتي، أرسل إليّ صورة تظهره إلى جانبها، كان يبدو أشبه بفارس إلى جوار جواد أصيل، ولهذا كتبت إليه رسالة تزدحم بالمحبة والأمل له بمستقبل جيد.

ويكرِّر طاهر في كل رسالة دعوته لي لزيارته، وبعبارات رومانسية:

«وسيم... تعال... لترى دمشق أم الياسمين، ونذهب إلى قاسيون العالي، من قاسيون ستدرك لماذا غنّت دلال الشمالي أغنيتها «من قاسيون أطل، يا وطني» وليس كما يقول فؤاد: «دمشق تعبت من تلك الأغنية، احضر معك فؤاد ، اشتقت لتعليقاته الطريفة.»

أخبرته أن فؤاد تزوج من فتاة كان رآها لمرة واحدة... هي فتاة فلاحة، يقول إن قلبه انشق لها عندما رآها في طريق العين.

أضحكني طاهر برده «أخيراً وقع طائر الدوري في الشبكة!!»

* * *

«فؤاد... أنا أعيش حالة نفسية صعبة، أخشى على نفسي من الجنون، صوت جويل يظلّ في أذني، وفي الليل أراها تعاتبني بكلام حاد.»

قال: «سافر إليها، واعتذر منها، واحضرها معك إن قبلت.»

حقيقة ...

أخشى أن تتمادى تلك الحالة، وتتحول إلى مرض نفسي.

قرأت... كثيرون ذهب العشق بعقولهم، على الرغم من أن عامر يمتدح عقلي، وعفراء تقول: «عقلك أكبر منك.»

وطاهر يقول: «مشكلتك أنا عقلك أكبر من جسدك.»

وهذه العبارات كنت أعتبرها مجاملة، فأنا أشعر بالعجز الكلي تجاه قلقي وتفكيري الدائم بجويل، لهذا قررت السفر لرؤيتها...

في مدخل الحوش بحلب التقيت وانيس، رحب بي وأمسك بيدي: «تعال لأسمعك آخر معزوفاتي.»

- قلت: «أريد رؤية جويل.»

- قال: «انتظر لحظة، واستمع أولاً.»

- راح يعزف مقطوعة حزينة، قلت: أنت تبكيني، يا وانيس.

- ترك «جنبشه» على ركبتيه وتأملني «أما زلت تحب جويل.»

- «نعم.»

- «للأسف لن تراها، غادرت مع أمها.»

- «إلى أين؟»

- «لا أعرف، اسأل العمة أمينة...»

أخبرتني العمة أمينة أن جويل وأمها غادرتا منذ شهر ، وأنها لا تعرف إن كانتا ستعودان... هناك كلام يقول إنهما سافرتا إلى فنزويلا .

كنت مقتنعاً برواية السفر، جويل كانت ترفض السفر إلى فنزويلا رغم إلحاح والدها من أجلي، لماذا لا تسافر الآن؟! صدمني الخبر، قالت العمة أمينة: «أنت السبب، فأنا أعرف حكايتكما، كم كنت سعيدة بكما وأنتما تجلسان على المقعد الحجري في باب الحوش، وتتناجيان كيمامتين، ذات يوم حدث لي ما حدث لجويل، أنتم الرجال تمارسون القتل بأقسى أشكاله.»

اتجهت إلى الحديقة العامة، وضعت رأسي على مقبض سيف أبي فراس الحمداني كما كانت تفعل جويل...

جاءني صوت جويل، ظل صوتها يكبر، ويكبر.

- «ابتعد.»

- رأيت الحارس يمسك بي من يدي.

- «ابتعد ، لماذا لا ترد وأنا أناديك.»

*　　*　　*

يظل «راديو» صغير على طاولة «فورميكا» أرجوانية اللون، قرب سريري الحديدي... أنقل المؤشر من الأخبار إلى البرامج الغنائية والثقافية،... وخطب عبد الناصر، وقادة البعث، وأحرص على متابعة أم كلثوم في الخميس الأخير من كل شهر عبر إذاعة صوت العرب.

تعرّفت في الاجتماع الحزبي على «ناصر... »

شاب في الخامسة والعشرين تقريباً، يدرس اللغة الإنكليزية في جامعة دمشق، ويعمل مدرِّس ساعات في الثانوية الخاصة بمدينتنا، كنت أقرأ الفقر والطيبة في حديثه ولباسه وملامح وجهه... سريعاً ألفته وأحببته وبات صديقاً لكل منا أنا وفؤاد.

كان ناصر يتحدَّث دوماً عن واقع فقراء المدينة الصعب، ويقول:

«في المدينة يموت الفقير وراء باب بيته ولا أحد ينتبه إليه.»

يوم زرنا ناصر في بيته، دُهِشنا بقسوة المشهد، كان الزقاق المؤدي إلى بيته ضيِّقاً، تنسكب فيه مياه المطابخ من البيوت المجاورة، فتفوح رائحة العفونة، ويصير الوصول إلى البيت كالسير في أرض موحلة.

يعلق ناصر على تأففنا «أرأيتم ، هذا واقع الحال.»

كان والد ناصر يعمل حمّالاً في السوق، يجر عربة محملة، ينقل عليها أكياس القمح، أو عبوات الخضار إلى التجار، وكان ناصر يشعر بالحرج عندما نرى والده في هذا الوضع، كنا نتقدم من أبيه ونمازحه ونسأله عن حاله، يبتسم وهو يمسح عرقه عن ذقنه المكسوَّة بالشعر الأبيض، وعن جبينه المملوء بالتجاعيد ويقول: «إنها الجحيم، ولكن من أين لي أن أطعم دزينة من الأولاد وهبهم الله لي، الله منحني الصحة من أجلهم، الحمد لله.»

ويهمس فؤاد «تخيَّل أن يؤمن أن الله أعطاه الصحة من أجلهم، فليعطه المال والرزق، كما أعطى أخي أحمد.»

فأقول «أخوك أحمد...»

يقاطعني فؤاد: «ستقول إنه يستغل الوطن.»

* * *

كان الخطاب السياسي السائد في تلك الفترة يستثمر الجانب العاطفي للجماهير... دون العمل على تعميق هذا الجانب فكرياً أو مادياً .

سألت الرفيق عامر: «هل الخطب الوطنية تطعم الفقراء خبزاً؟!»

أجابني: «الوضع العاطفي يظل هشّاً ومفكّكاً إن لم يعزّز بالفكر.»

كنت أجرؤ على مصارحة الرفيق عامر بكل ما يجول في خاطري من أفكار، لكن فؤاد كان يحذرني: «هو يجاملك... عامر رجل سياسة.»

- «وعلى ماذا يجاملني؟! ليس لي أخ مثلك في موقع مْتقدِّم ولست من أسرة لها وجاهة سياسية أو مادية.؟!!»

كان الرفيق عامر في منتصف الثلاثينيات من عمره، حسن الهندام، طويل القامة، يهتمَّ بتسريحة شعره الميال إلى الخرنوبي، في صوته بحة، وعلى وجهه تجاعيد تحكي قصة وجع عاشه في السجن زمن الانفصال، وفي زمن الوحدة بسبب انتمائه إلى حزب البعث، لم يتزوج، وكنت أتساءل: «أكانت لديه حالتي مع جويل؟!» عندما قلت ذلك لصديقي فؤاد ، قال: «أنا من سيسأله.»

تجرّأ فؤاد وسأله، أجاب عامر باقتضاب شديد: «ليس هذا أولوية عندي.»

يظل الخطاب السائد في أوساط الحزب: «المبادئ أهم من الخبز.»

كان هذا الشعار رداً على المتذّمرين من الواقع المعيشي الصعب، ورغم اقتناع كثيرين بعبقرية الشعار، كان لعامر رأي مختلف، كان يؤمن أن رفاهية الفقراء تحديداً أهم من رفاهية المبادئ... ويقول إن المبادئ يجب أن تكون في خدمة الفقراء.

لم أتوقّع أن يسألني الرفيق عامر: «كيف تقرأ حال الحزب؟»

أجبت بما كنت أسمعه عن حال الناس وتعليقاتهم السريعة على الأوضاع الراهنة: «أخشى أن يتحول الوطن إلى جزيرة معزولة عن العالم، وأن تتحول تلك الخطابات النارية يوماً إلى نداءات استغاثة لبحارة فقدوا تواصلهم مع موانئهم. يجب ربط الفكر بالممارسة، والخطب بالعمل.»

هزّ الرفيق عامر رأسه ، وقال: «أخشى ذلك!» ولم يزد.

كان يخصني بالكتب السياسية لقراءتها، ويؤكد أن الثقافة دم المناضل. وعندما يقدّم لي كتاباً، يقول لي: اكتب نقدك

عليه بعد قراءته، لا يكفي أن نقرأ، علينا أن نفهم ما نقرؤه... عندما تخلو الأحزاب من مثقفيها تترّهل وتنطفئ، فهم زيت مشعل الثورة.»

ويضحك فؤاد مني ونحن نغادر مكتب عامر: «الرجل سيقتلك بمديحه.»

* * *

اتجهت مع فؤاد إلى بيت أهله الجديد في المدينة بدعوة منه. كان امتلاكهم منزلاً في المدينة حدثاً مفاجئاً... سألته: هل هبطت عليكم النعمة من السماء؟!

يضحك «لا، هي الثورة لمن يعرف كيف يرضع ضرعها.»

كان فؤاد صريحاً، وجريئا، ولكنّني لم أجرؤ أن أسأله يوماً لماذا. كان أخوه أحمد وراء اعتقال والد عفراء، رأيت في ذلك هروباً من وعد قطعته أمام عفراء.

كان بيت فؤاد الجديد في مواجهة البحر مباشرة، من واجهته تمتد الرؤية نحو الأفق الغربي، وعلى امتداد الشاطئ، فتبدو مدينة اللاذقية كرأس يمتدُّ في عمق البحر، قلت: «اليوم أصبحت برجوازياً عن حق.»

«من زمان وأنا أقول لكم إنني من أسرة برجوازية، ألم يكن والدي تاجراً على حمار؟!... اليوم تغيَّرت الأدوات.»

على «الفراندا» المطلة على البحر مباشرة، ونحن نشرب القهوة...

راح فؤاد يضحك: «هل تصدق أن فؤاد ابن حليمة يسكن بيتاً على البحر؟!...»

كان البيت أنيقاً، ديكورات، وأثاث أنيق، وشرفات تطل على كل الجهات، وكل شيء فيه يوحي بالرفاهية .

أخبرني فؤاد أن أخاه أحمد، اشترى البيت من أجل أن يقنع ياسمين ابنة الآغا محمود أن أهله يسكنون منزلاً أنيقاً في المدينة، ولم يعودوا فلاحين كما كانوا يوما عند والدها.

وحدثني أنه يوم دخل بيت أهل ياسمين برفقة أخيه أحمد، شعر بالهزيمة، قال لي: «كنت سأصاب بالجنون، يا رجل... ما زال والدها يظنّ نفسه آغا، لا تغادره روح السطوة... شتم الفقراء الذين جعلتهم الثورة يتجاهلون أولاد الأصول كما يسمي أمثاله.»

- ٦ -

كان نيسان في أوله ...

عندما جاءني عادل زميلي في المدرسة، وأخبرني أنه اكتشف أننا أقرباء من خلال أخته من أمه قريبة أمي، وأنه جاء على ذكري أمامها، وتتمنّى أن تراني.

اقترح عادل عليّ زيارتها في بيتها مع عائلتها في اللاذقية.

- «أسرة صغيرة، مرتبة، تتكون من عدة فتيات جميلات.»

- «موافق.»

كان الوقت عصراً عندما كنا ندق باب بيت أخته... فتحت لنا الباب فتاة جميلة، وأنيقة، رحبت بنا، وخصت عادل بترحيب خاص: «أهلاً خالي.»

- «أهلاً تالا.»

أعجبني اسمها فهو اسم شاعري رقيق.

كان أستاذنا في دار المعلمين سليمان العيسى يقول لكل من اسمه نصيب ولكنني لا أعرف بالضبط ماذا يعني«تالا» لكنه اسم رشيق، دخلنا معها غرفة استقبال متواضعة، ثمَّة طاولة في زاوية الغرفة، وعليها ألبوم صور، وكتب مدرسية. «كل شيء في المكان يوحي بالبساطة، حتى جلسة تالا، نظراتها، حديثها... وكانت بين الحين والحين ترمقني بعينين مشاغبتين.»

سألت تالا: «خالي لم تعرفني على الأخ ؟!»

- «ابن خالتك.»

- «ابن خالتي؟!.. من أين ؟!»

راح يقصُّ عليها حكاية قرابتنا...

أحسست بـ «تالا» تتسرَّب كعطر إلى روحي.

حقيقة... كنت بحاجة إلى عشق جديد، كما يقول فؤاد، يملأ فراغ روحي بعد جويل. رحت أتابع حركة أصابع تالا وهي تقلّب صفحات ألبوم الصور الفوتوغرافية، بدت مرتبكة بعض الشيء، وزاد ارتباكها عندما اكتشفت أن نظراتي تلاحق حركة

أصابعها، قالت: «هذا الألبوم صنعته بنفسي، ووضعت فيه صور العائلة، هل تريد رؤيته؟»

تلامست أصابعنا للحظة وأنا أمسك به، ضحكنا في لحظة واحدة، وهذا ما أصابها بالخجل، أحنت رأسها إلى الأرض للحظات، وعندما رفعت وجهها، أحسست بنظراتها تسبح على وجهي.

- «هل أعجبك الألبوم؟»

كان على الصفحة الأولى من الألبوم بخط يدها مقطع من أغنية ساحلية.. هذا المقطع استنهض جويل في ذاكرتي:

أذكر أنني أمسكت جويل بيديَّ الاثنتين، وكان القمر هلالاً، كانت فرحة، وتتمايل كزهرة هبّت عليها ريح مسائية، راحت تغني أغنية أم كلثوم الجديدة «أنت عمري.»

تركت رأسها على كتفي: «وسيم ... غنِّ أنت.»

- «لا أجيد الغناء.»

راحت تغني أغنية ساحلية تحكي قصة فتاة عاشقة تغني لحبيبها «سالم» الذي أبحر مساء للصيد، ولم يعد في الصباح مع البحارة، فجاءت إلى الشاطئ تنتظر عودته... لكنه لم يعد،

كانت تأتي إلى البحر في كل صباح لانتظاره، أخرجتني تالا من شرودي: « أين ذهبت بخيالك؟»

- «أتأمل الصور.»

- اتسعت ابتسامتها «هل أعجبتك.»

- لا أدري كيف تجرّأت وقلت: «ولكنك في الواقع أكثر جمالاً.»

ارتاحت لكلماتي، وابتسمت ابتسامة واسعة: «أنت تجاملني.»

- «أبداً ... هي الحقيقة.»

وأنا أودعها، قالت: «دعنا نراك ثانية.»

ونحن نعبر الزقاق نحو الشارع الواسع، تلفّت خلفي... كانت لا تزال واقفة، ابتسمت، ولوّحت بيدها.

- سألني عادل: كيف رأيت تالا؟

- «لطيفة.»

«فقط.»

- يبدو أنه انتظر مني كلاما آخر، لكنني بقيت صامتاً.

*   *   *

لم يرافقني عادل في زيارتي لبيت تالا في هذه المرة، قال: «هم أقرباؤك مثلي، وبت تعرفُ الطريق إليهم، وأقول أكثر، تالا دعتك وحدك عندما قالت لك دعنا نراك ثانية، صح؟»

- «صح... معك حق، فأنا سأذهب إليهم.»

- راح يضحك «إن شاء الله نسمع الأخبار الطيبة.»

فاجأتني تالا بترحيبها، ولم تخف مشاعرها «اشتقت إليك.»

تتالت لقاءاتنا، وكنت أنتظرها أحياناً عند باب مدرستها، ونمشي معاً على امتداد الشاطئ إلى بيتها، وأحياناً نذهب إلى السينما... وكان أهل تالا مباركين لعلاقتنا، ومشاورينا، وجلساتنا على سطح البيت، نتناول الشاي، ونتحدّث، بدأت أشعر أن تالا تملأ الفراغ الذي أحدثته جويل.

وتباعدت لقاءاتي مع فؤاد وعامر، في الاجتماع الحزبي سألني الرفيق عامر:

«ما قصة غيابك عنا، ما الذي يشغلك؟»

أجابه عادل «الرجل عاشق.»

ابتسم الرفيق عامر «خبر مفرح... وسيم... انتبه... المصطلحات السياسية لا تصلح للحب... الحب يحتاج إلى الخيال... وهذا ما كنت أفتقر إليه...»

كان في رأي عامر أن اثنين يموتان بوجعهما: «شاعر عاشق، وسياسي تمشي المبادئ في دمه، ثم يكتشف الحقيقة الموجعة بأنه كان في حلم.»

لم أكن أعرف بالضبط ما الذي يعنيه الرفيق عامر بكلامه، أكان يريدني الابتعاد عن العشق كما فعل هو، أم تجاوز تجربته التي افتقرت إلى خيال العاشق؟!

كان الرفيق عامر شديد القلق... ويتوقع في تلك الفترة نشوبَ حرب مع إسرائيل، ويخشى ألا نكون مستعدين لها على عكس ما يقوله الإعلام العربي، وخطابات السياسيين في كل البلدان العربية كان رأي الرفيق عامر على الرفاق الالتحاق بالحرس القومي أو بالمقاومة الشعبية إن نشبت الحرب، والتفت إليّ: «وسيم، إن نشبت الحرب ابق قريبا مني.»

قررت زيارة تالا.

كان والد تالا متابعاً جيداً للأخبار و«ناصرياً» حتى العظم... حقيقة، لم يكن والد تالا يختلف بحماسه للحرب عن الآخرين، كان شديد الثقة أن الحرب ستزيل إسرائيل. وكانت وسائل الإعلام تتحدّث بتفاؤل كبير، وكأن القدر دفع بإسرائيل إلى حتفها.

قال والد تالا: «ها هي فرصة عبد الناصر المرتقبة.»

غنىّ والد تالا في ذاك المساء أغنية عبد الوهاب «يا بابور قلي رايح على فين.»

وكان سعيداً، لأن الحرب قادمة.

سهرت مع تالا حتى الصباح، عندما أخبرتها أنني ذاهب للحرب، تركت رأسها على صدري، وبكت.

* * *

اندلعت الحرب فعلاً...

تمركزت مع فؤاد وآخرين قرب «تل سوكاس» المواجه للبحر، كنا نشبه بحماسنا الجماهير التي كانت تعيش شعور الانتصار.

قامت الطائرات الإسرائيلية بضرب خزانات النفط في بانياس، وضربت مرفأ اللاذقية، بدا المشهد مؤلماً... فارتفعت أعمدة

النار والدخان الأسود حتى السماء. ثمّة راديو صغير يحمله فؤاد، كان يتحدث عن تقدّم القوات الإسرائيلية نحو القنيطرة... وانتشرت شائعات بين الحضور عن نزول قوات إسرائيل في الموانئ السورية القريبة... وعن هبوط مظليين إسرائيليين على امتداد الشاطئ... وسيطر الفزع على الناس، فرّ كثيرون مفزوعين... بدا المشهد مأساوياً، معلناً هزيمة أمسكت بنفوس الناس ومشاعرهم وإيمانهم السياسي والديني .

قلت للرفيق عامر: «نحن نشهد هزيمة.»

هزّ رأسه : «رأسي يتفجر.»

عدت إلى البيت لرؤية أهلي في هذا الجو العاصف سياسياً...

وجدت بيتنا مزدحماً بأناس أعرفهم وبآخرين لا أعرفهم، جاؤوا من المدينة هرباً نتيجة إشاعة سرت بسرعة عن إنزالٍ بحريٍّ على الشاطئ ...

نزفت عين أبي دمعة على وجهي وأنا أقبل يده. سألته: «لماذا تبكي؟!»

نجح صوته في عبور حشرجة في حلقه: «ألا ترى الفزع على وجوه الناس؟»

- «الأمر عادي».

- «ليس عادياً... ستروح أجيال، وتأتي أجيال جديدة، والفزع يسكنهم، ما هو بعد الحرب سيكون أخطر مما هو الآن في الحرب.»

أبي الذي كان يزرعنا دائماً بالقوة، والأمل... بدا محبطاً على غير عادته...

أعلن عبد الناصر استقالته، وتحركت الجماهير في مصر رافضة الاستقالة.

قال فؤاد: «أكتشف في عيون الناس هزيمة محتبسة في أرواحهم وعيونهم، ما تركته الحرب أقسى في النفس مما تركته على الأرض، ورغم ذلك ظلت أغنية «من قاسيون أطل يا وطني» تدوي في التلفاز؟»

لم أرد على فؤاد كعادتي عندما يكون سلبياً في كلامه، كنت مثله مسكوناً بوجع المرارة، وبدمعة تأبى رجولتي أن تظهرها، أليس من العيب في مجتمع مكابر أن نبكي ويرى الناس بكاءنا؟!

أصرَّ فؤاد على سماع رأيي حول النكسة، قلت: «هي محطة لا أكثر في حرب طويلة.»

راح يهز رأسه «بتّ تشبه الرفيق عامر، الرجل يسكنه الوجع، ويبتسم، من أين لأي منكما القدرة على خداع نفسه بتجاوز وجعه بابتسامة؟»

ثم سألني: «منذ زمن لم أحضر صلاة الجمعة، هل تذهب معي؟»

قلت: «وهل نجد هناك الحل؟»

قال: «لم اعد أعرف ما هو الحل.»

- «نذهب.»

قال خطيب الجامع: «الهزيمة عقاب الله للأمة لأنها لم تعتمد الإسلام نظاماً، والاغتسال من العروبة، والشيوعية، والقومية.»

قلت لفؤاد: «هذا هو خطاب الهزيمة.»

* * *

نصحني عادل ألا أذهب لرؤية تالا في بيت أهلها: «سينفجرون في وجهك لأنك لم تتقدم للزواج منها، هم لا يستطيعون الانتظار... » أخبرت عادل أنني لست قادراً على الزواج الآن، هل يظنون أنني أمير إقطاعي، أنا مجرّد معلم لم يقف بعد على قدميه. قال: «أحببت أن أخبرك ما سمعته منهم. »

«ما زال أمامي خدمة إلزامية.»

* * *

أملى والدها عليّ قراره كأمرٍ عسكري:

«الزواج أو الابتعاد.»

ردّت تالا: «القرار لي.»

نهرها والدها: «القرار أنا من يأخذه.»

التقيت فؤاد في ساحة الشيخ ضاهر يقود سيارة تاكسي أنيقة، وبرفقته «ناصر»... نزل من السيارة واحتضنني: «اطلع.»

وقبل أن أسأله: لمن السيارة: قال: «لا تسأل عن السيارة، ولا تسأل إلى أين.»

جلست في المقعد الخلفي، قال ناصر: «عليك أن تتوقف عن طرح الأسئلة، والحوارات الجادة، يقولون إن الرفيق «خرتشوف» يوم زار بريطانيا، أدهش بجمالها، قال تعليقاً على ما شاهده «لم تصنع الاشتراكية رفاهية كهذه نحن لسنا بحاجة إليها، لماذا محكوم علينا نحن الفقراء بالشقاء.»

سألني فؤاد : «هل تذوقت الويسكي من قبل؟»

«ولم أسمع بها.»

«أنت ثوري فاشل. أقرأ في وجهك الحزن...ما بك؟!»

«انتهت علاقتي مع تالا.»

راح يقهقه: أهنئك، بتَّ حراً، ليتني لم أتزوج، أفقدني الزواج حريتي.

توقف أمام مطعم قريب، أخرج زجاجة (ويسكي) من سيارته، ومشى إلى طاولة قريبة في المطعم، وقال: «وجب علينا أن نحتفل بحريتك.»

مع الكأس الأول، شتم فؤاد الفقر، ومصّاصي دماء الفقراء.

مع الكأس الثانية، شتم الذين يسرقون الثورة.

ومع الكأس الثالثة شتم أخاه أحمد.

وفي الكأس الرابعة رفع كأسه وسألني: «وسيم أيهما أقوى قرابة المال أم قرابة الدم؟»

وتابع: «بات كل أغنياء البلد أخوة لأخي، وأنا الغريب.»

وفاجأني بكاء ناصر، سألته: «لماذا تبكي؟ هل سكرت أنت أيضاً؟»

«ابكي على أبي، هو الآن يجرُّ عربته كحمار وأنا أسكر.»

ونام رأسه على الطاولة.

-٧-

في الواقع، في أثناء وجودي في الخدمة الإلزامية، وفي خطِّ المواجهة مع العدو الصهيوني لم أكن أملك الوقت للكتابة والمطالعة... كنت أشهد يومياً رمايات متبادلة على امتداد الجبهة المواجهة لتلِّ الفرس، وحركة الطيران الإسرائيلي وهو يخترق خط الجبهة على ارتفاع منخفض، ويواجه بنيران مدافع رشاشة دون جدوى، كان كل ما تفعله الطلقات أنها تغطي السماء بكرات من الدخان الأبيض.

كان كلُّ شيء في الجبهة يوقظ فيني الرَّغبة بالكتابة، وإرسال ما أكتبه إلى الصحف والمجلّات إلى دمشق عبر البريد العسكري، كنت مدفوعاً برغبة توثيق ما أشعر به نحو الوطن، والأمر الآخر الهروب من الزمن، ومن ذاكرتي التي كانت تفيض أحياناً بوجه جويل وتالا وأبي وإخوتي، كانت كل المشاهد التي تتدفق موجعة.

المفاجأة...

كان قرار انتقالي إلى مجلة «جيش الشعب» بدمشق.

وبحكم عملي في المجلة ككاتب، التقيت شعراء، وأدباء، وكُتَّاب، وسياسيين... كان أول الذين التقيت معهم الشاعر ممدوح عدوان، كان يعمل في مجلة جيش الشعب، وكان شاباً لطيفاً وممازحاً وصاحب ضحكة تجلجل في المكان.

كانت مهمتي الإعلامية الأولى في المجلة إقامة حوار حول «قصيدة النثر» ثمة مهابة راحت تتملكني وأنا أتهيأ لذلك، فالموضوع إشكالي جداً... ورئيس التحرير لم يسألني رأيي إن كنت راغباً في موضوع الحوار.

قرأ ممدوح عدوان حيرتي وقلقي، أمسك بيدي في مكتب رئيس التحرير وأخذني إلى مكتبه، وقال: ثق بإمكانياتك، لا تخشَ شيئاً، عندما ستلتقي مع من سأكتب لك أسماءهم من شعراء ستجدهم بشراً عاديين، وكتب على ورقة أسماء شعراء وعناوينهم. وقال: «اذهب إليهم، كُن صبوراً على جنونهم، فالشعراء لهم جنونهم الشعري والفلسفي، وخيالاتهم وعليك أن تفهمها.»

وراح يقهقه بصوت عال كعادته: «الإصغاء إلى جنون الشعراء متعة، تعلّم ممارستَها.»

كان ذلك الدرس الأول الذي قدَّمه لي ممدوح بطريقته الطريفة.

التقيت الشاعرين أحمد الجندي المعروف بظرافته وحبّه للفكاهة، وعلي الجندي وكان يعمل في جريدة الثورة، الركن الثقافي، كان مكتب علي الجندي ملتقى للكتاب والشعراء، يأتيه هواة الشعر والأدب، وكانت حكاياته عن الأدب والمرأة والجنس تجعله محبباً إلى الجميع... وعرفت فيما بعد الشاعر محمد عمران، شربت معه القهوة في مقهى «الهافانا»... كان الرجل موجوعاً بلعبة الشعر والحياة والأحلام المتكسرة، سألني: هل تكتب الشعر؟»

قلت: «لا.»

تنّهد: «الشعر أخطر الأمراض التي تصيبنا، احفظ نفسك من هذا المرض.»

أنشدني بعض قصائد عشقه. سألته: «أهي قصائد لحبيبات عبرن حياتك؟»

ضحك «هي لجنيّات عبرن، ولأخريات لم يعبرن بعد.»

زرت الشاعر حامد حسن في مكتبه، في وزارة الثقافة، وكان يشرف على إصدار مجلة أسامة، تحدّث بحماس عن قصيدة الشعر المقفى، وهاجم ما يسمونه شعراً حراً، كان يرى فيه أحد مظاهر الحرب الثقافية التي تواجهنا.

رحت أتعرَّف على دمشق، أحببت روحها وعطرها وعمقها وأسواقها القديمة والجديدة، دخلت متاجرها ومقاهيها وحاراتها...

أحببتها، لكن ليس كما أحببت حلب...

* * *

- «النقيب طاهر يريد التحدث معك على الهاتف.»

لم أتذكُّر من هو النقيب طاهر، جاءني صوته غريباً، هي المرة الأولى التي أسمع فيها هذا الصوت على الهاتف، قال بصيغة الأمر:

«سأرسل إليك سيارة، انتظر.»

- «لم أعرف؟»

- راح يضحك «أنا طاهر... صاحب الأحلام المتكسرة، هل نسيتني؟!»

فَرِحْتُ بسماع صوته، منذ وقت وأنا أفكِّر بزيارته في مكتبه، من فرطِ سعادتي، تركت المكتب، ووقفت عند الباب الرئيس أنتظر مجيء السيارة.

آخر مرة التقينا فيها، في بيت أهله، كان في حديثه بعض روح المباهاة على غير عادته، لم أنزعج، قرأت ذلك نوعاً من الكبرياء، كان طاهر في زمن المدرسة يطلق على نفسه صاحب الأحلام المتكسرة، يعتقد أن أحلامه نوع من الهذيان، ويصوغ ذلك في عبارات مصابة باليأس.

كانت سيارة طاهر من نوع مرسيدس بلوحة لبنانية، عندما فتح لي السائق الباب الخلفي، رفضت، قلت سأجلس إلى جوارك، لم يتحدَّث معي السائق طوال الطريق، كنت أقرأ في وجهه التهيب.

رحت اسأله عن طاهر ، فتحدَّث عن سطوة طاهر، ونفوذه في الثكنة العسكرية وقربه من قائد الوحدة، فالمعلم طاهر من أقرب الضباط إلى المعلم.

صعدنا جبل قاسيون، تذكّرت فؤاد يوم قال لي: «لم يتعب قاسيون من أغنية دلال الشمالي»... تخيلت فعلاً دلال الشمالي على قمة الجبل تغني.

أخرجني سائق طاهر من شرودي: «وصلنا.»

دخلت مكتباً أنيقاً، سألني طاهر على الفور: «لماذا تضحك؟»

قلت: «لم تعد، يا صديقي صاحب الأحلام المتكسرة؟»

لم يرد... ظلْ خلف طاولته صامتاً يتأملني، وأنا قبالته، هذا الأمر آلمني ، قلت في نفسي: «ربما لا يقصدها.»

لم يحدِّثني طاهر كعادته عن وجعه، ولا عن الماضي الذي عشناه معاً، أو عن أحلامه، وأجنحة الشّمع التي كان يقول إن أحلامه تذوب كما يذوب جناح الشمع بوهج الشمس.

أطال الحديث عن حياته الجديدة، وعن دمشق نهاراً، وليلاً. سألته:

«وهل تختلف دمشق في النهار عن الليل؟!

ضحك بعنجهية لم أعرفها فيه من قبل.

«وتختلف في الصباح عن المساء، ومن حارة إلى حارة، ابحث في دمشق عن أي شيء تجده، أيّ شيءٍ، أعرف أنك لا ترغب بالنساء، ابحث فيها عن النساء تجدهن... عن العبادة تجدها، عن الثقافة - والسياسة، والفكر، والعلم ، دمشق كصندوق

الفرجة الذي كنا نتفرَّج عليه في أيام العيد، كل شيء كان في ذاك الصندوق.»

راح طاهر يمارس أمامي سطوته على مرؤوسيه، وفي الردِّ على هواتف كثيرة تأتيه، وكأنه يريد أن يقول لي: «لم أعد طاهراً القديم... صرت إنساناً آخر.»

أسرعت في تناول القهوة، ونهضت «سأغادرك، لا أريد أن آخذ من وقتك أكثر.»

لم يطلب مني البقاء، قال ببرود: «كما ترى... وقتي ضيق.»

وصلت إلى قناعة أن طاهراً أراد بدعوته لي أن يفهمني أن طاهر الجديد، غير طاهر القديم، وأنه بات رجلاً ذا أهمية، وأن عليّ أن أعرف ذلك منذ الآن.

هو قال ذلك مرّات بطريقة غير مباشرة: «لو بقيت معلماً إلى أين كنت سأصل؟ هنا... السقوف مفتوحة إلى أعلى، حتى اللانهاية.»

قلت وأنا أودِّعه: «أتمنى أن أراك في موقع متقدِّم.»

رد وهو يرسم ضحكة باردة على شفتيه: «سيكون ذلك.»

* * *

أحببت دمشق.

لكنني لم أستطع أن أقنع نفسي بالبقاء فيها...

يظلُّ الخوف من وضعي المادي السيئ قائماً...

كان المثقفون في تلك الفترة التي أعقبت نكسة حزيران، يمضغون أحلامهم وأمانيهم، وهلوساتهم في المقاهي وأماكن السهر، كأنهم أصيبوا بالدوَّخة. لم ترحني حياتهم، شعرت بالتأفّف منها... مرّات... حضرت في مقهى دمشقي جانباً من حوارات يقيمونها، كل منهم يظن نفسه «بابلو نيرودا، وغيفارا، وكاسترو، وكافكا، ولينين.»

كان ما يميِّز المثقَّف في ذاك الوقت فوضويته في الشكل، وفي خطابه وعيشه... تلك الفوضوية شكلت هوية له، كثير القلق، والأسئلة، والثرثرة، والاتهام ودائم الحديث بالفكر الماركسي... في رأي الغالبية أنّ الفكر الماركسي وحده ما يميز المثقف من غير المثقف في رأيه.

وكان «المتمركسون» ثقافياً شديدي القسوة في تحليلاتهم الثقافية والسياسية، وصفهم الكاتب غسان الرفاعي: بالضفادع الثقافية التي لا تجيد سوى «النقيق» والتبشير بقدوم السيل...»

يقول لي الشاعر علي الجندي عندما حدّثته برأيي عنهم:

«هؤلاء يخلعون ملابسهم للاستحمام بالحرارة، ولا ينظرون إلى الشمس إن كانت بازغة أو لا، هم مشكلة، يشبهون أبطال الكاتب الأفريقي «سونيكا.»

يوم التقيت الشاعر محمد عمران، سألته:

«كيف ترى مستقبلنا كوطن وأمة في ظل الظروف التي أعقبت النكسة؟»

قال: «النكسة غرزت أظافرها في أرواحنا زرعت فينا الهزيمة... أنا لم أعد قادراً على كتابة شعرٍ ينبض بالفرح.

وتعمَّقت تجاعيد وجهه: «حتى صديقتي، قالت: تغيرت يا محمد، في كلماتك العاشقة طعم الهزيمة.»

«الحزن عندما يسكن حروفنا، تصير الحروف ثقيلة، مبلَّلة بالخوف، والوجع، والألم، والتشاؤم.»

قال لي ممدوح عدوان: «أنا قروي مثلك، ولكنَّني نجحت في التأقلم مع حياتي الجديدة هنا، ابحث عن امرأة تشعلك بعشق دمشق.»

قلت: «ليتني أستطيع.»

وأكملت بيني وبين حالي: «وحدها جويل أشرقت في روحي كشمس»، ذات يوم قالت «إن افترقنا، ستظل في روحي»، وقلت: «وأنت ستستقرين كسفينة في قاع بحري، وعندما تتحرك التيارات البحرية، تهزها، فتبتهج الأسماك، وتقيم أعراسها.»

راحت تضحك: «من أين تحضر تلك العبارات الجميلة؟»

قلت «عندما يتحرك الحب، تتحرك الكلمات كورود النارنج، وتنثر عبقها.»

يوم انتهت خدمتي الإلزامية والاحتياطية، استدعاني رئيس التحرير إلى مكتبه، واقترح عليّ البقاء في دمشق: «وسيم مستقبلك هنا.» قلت: «أريد العودة، دمشق ليست لي، دمشق مدينة باذخة، وتحتاج إلى أناس باذخين بالمال، وأنا باذخ بالفقر...» راح يضحك: «أنت تنظر إلى الأمر بمنظار معتم... في القرية... سوف تتقزم كشجرة سنديان في أصيص.»

قلت: «الفقراء لا مكان لهم في المدن الباذخة.»

راح يهزُّ رأسه، وهو يتأملني: «الفقر يسكننا في الداخل أولاً، ذات يوم كنت أعيش الحالة نفسها، ويوم جئت دمشق، قررت الهروب من إحساسي بالفقر، تمرَّدت عليه، كان عليّ أن أكسر جدران اليأس بالعمل.»

-٨-

لأول مرّة أدخل مقهى الميناء المطلّ مباشرة على مرفأ الصيد، كان ذلك بمناسبة التحاق ناصر بوزارة الخارجية بدمشق للعمل في أحد مكاتبها... عندما سألته «كيف تدبر أمره»... أقسم بالله أنه لم يعتمد على أحد .

قال فؤاد: «الخبر، أن طاهر هو من ساعدك ؟»

«طلبت منه، لكنه لم يساعدني، بل كان جافاً معي، فتركت أمري على الله.»

قال فؤاد ممازحاً: «فأرسل الله معك أحد ملائكته.»

«المهم أنني قبلت.»

طلب القهوة، وأقسم بالله أننا سنكون بضيافته على الغداء بعد أن يتقاضى راتبه الأول، وراح يمازحنا، ويمازح البحارة الموجودين في المقهى، قال: «كلهم أصدقاء أبي وزملاؤه في التعب والشقاء.»

كان الرّيس عثمان كبير البحارة قريباً من طاولتنا، جاء وقبّل ناصر، وهنّأه بموقعه، وقال له: «لا تخرب كغيرك، تذكر البحارة، وعمّك عثمان، كلنا بحاجة لك.» وهمس: «لا تتركنا «للشيخ حمدي أبو أولاد» وراح يضحك وهو يبتعد. سألت ناصر: «ماذا يقصد «أبو الأولاد؟.»

ضحك فؤاد: «لا حاجة للسؤال مفهومة.»

ونحن نشرب القهوة... رحت أتملَّى امتداد البحر، والأفق البعيد، شاردٌ مع صور تتبعثر على جدران ذاكرتي. سألني فؤاد: «ما بك يا رجل، أنت دائم الشرود؟»

- «لا أدري... التفكير بحياتي الجديدة يزيد من إحساسي بالضياع جئت من دمشق، فأحسست بالغربة، لا أصدقاء غيرك وغير ناصر، ولا معارف لي، ولا امرأة أحبها وتحبني، تبدو لي المدينة بعد سنوات، وكأني أراها لأول مرة.»

قال ناصر: «كان عليك البقاء في دمشق.»

قلت: «دمشق تحتاج لمن في أفواههم ملاعق ذهبية.»

ضحك فؤاد: «في دمشق تأتي الملعقة الذهبية من تلقاء نفسها إلى فمك.»

- «كما حصل مع صديقنا طاهر؟! ومع أخيك أحمد.»

لم يعلّق فؤاد.

رحت أتابع حركة الريّس عثمان، دلق ما تبقَّى من كأس الشاي في فمه، ونزل ركضاً على الدرِّج الحجري نحو الميناء مشمراً عن ساقيه حتى الركبتين، وعن زنديه حتى المرفقين، وهو ينادي البحارة القادمين من « ظهر البحر» للعجلة بتفريغ زوارقهم من الأسماك: «تأخرتم، بعد قليل سيأتي التّجار.»

رحت أتأمل وجوه البحارة، بدت متعبة، وجافة لفَحَتها الشمس، وعيونهم تتدلى أجفانها وكأنها مثقلة بالملح، كان الرفيق عامر يقول: «هناك فلاحون متعبون في البرِّ وآخرون في البحر.»

كان عامر مغرماً بالصيد البحري، يرافق الصّيادين أحياناً في رحلات صيدهم، ويحكي لي أحياناً عن بعضها: «ليتك تأتي معي.»

تذكرت الرفيق عامر، وقرَّرت زيارته في مكتبه.

قلت لفؤاد: «هل تذهب معي في مشوار قصير؟»

رفض: «أنا مطلوب إلى وزارة الداخلية، سنزور أهلها.»

- «ولا تستطيع التمرد؟!»

- «لا.»

لم أقل لفؤاد أنني سأزور الرفيق عامر. فهو لم يكن مرتاحاً له، ولا للعمل السياسي كله، أخبرني أنه قرَّر الابتعاد عن السياسة نهائياً.

في مكتب عامر، سألت عنه.

راحت نظرات الحضور تلتصق لزجةً على وجهي، ودهشت لاستغرابهم، حتى المستخدم الذي يقدّم الشاي والقهوة، قرأت في نظراته استغراباً رغم معرفتي بخصوصية العلاقة بينه وبين عامر.

سألني الجالس وراء الطاولة: «منذ متى لم تأت إلى هنا؟»

قلت «منذ أربع سنوات.»

- «وأين كنت؟»

- «في الجيش.»

بَرَمَ فَمَه بضحكة أزعجتني، وقال: «أنت الآن أشبه بأهل الكهف، عندما استيقظوا، وجاؤوا المدينة، وجدوا عالماً جديداً غير العالم الذي يعرفونه.»

خطر لي الخروج، فأنا لا أعرف أحداً من الموجودين سوى المستخدم، وجوه جديدة، حتى أثاث المكتب مختلف عن الماضي، ومكان الطَّاولة تغير، ولون الجدران تغيَّر، قلت في نفسي: «حقاً أنا أشبه بأهل الكهف.»

قررَّت مغادرة المكان، استوقفني سؤال أحدهم: «لم تقل لنا من أنت؟»

أجبته ببرود: «وسيم الجبلاوي.»

- «أأنت من يكتب في الصحف؟»

- «نعم.»

- «أتابع بعض ما تكتبه أحياناً.»

تذكَّرت الرفيق عامر يوم قال لي «هم لا يقرؤون، يتذرَّعون بالوقت لشعورهم أنهم يمتلكون الفهم، لا تناقش هؤلاء، فتستفزهم.»

راح يتأملني من رأسي إلى قدمي، لم أرتح لنظراته، ولا لسؤاله عندما سأل:

«ماذا تريد منا ؟»

- «لاشيء.»

- «ما هو عملك الأساسي؟»

- «معلم.»

قال الجالس وراء الطاولة، للرجل:«لدينا إدارة إعدادية» «كرم الجبل» شاغرة، ما رأيك أن تكون مديراً فيها، نعم هي نائية، لكننا نحتاجك هناك كرفيق، هل أنت عازب؟»

- «نعم.»

«إذاً... المكان مناسب لك.»

قلت: «لم أسمع بهذه القرية من قبل؟»

- «ستتعرف عليها.»

* * *

كان كراج قرية (كرم الجبل) الملاصق لقلعة المدينة، يزدحم بشباب، ورجال، ونساء، وأطفال، إلى جانب سيارة «لاند روفر» زرقاء اللون، وثمة «حمّال» يشبه إلى حدٍّ ما والد ناصر... يرفع أغراض الركّاب إلى ظهر السيارة .

سألت الحمّال: «هل هي السيارة الذاهبة إلى كرم الجبل؟»

اتكأ متعباً على جدار السيارة وتأملني: «أنت غريب؟»

- «نعم.»

- «نعم هي، وهذا سائقها.»

كان سائق السيارة يشرف على ترتيب «أغراض الركَّاب، وترتيب جلوسهم داخل السيارة. سألته: «وأنا أين سأجلس؟»

تأملني للحظات «أنت غريب عن القرية؟»

«نعم.»

«اجلس إلى جانبي.»

عندما تحرّكت السيارة وجدت نفسي بين ثلاثة رجال، رائحة عرقهم مزعجة، وراح جسدي ينز عرقاً، وثمّة رجال وشبان صغار في مؤخِّرة السيارة وقوفاً، وبعضهم على ظهرها وفي مقدمتها يغلقون الواجهة، ولا يتركون سوى نافذة صغيرة يرى السائق منها الطريق .

سألني السائق، ونحن نجتاز المدينة، وندخل الطريق التي تؤدي إلى كرم الجبل:

- ماذا ستعمل في قريتنا؟

- كنت ضجراً، ونزقاً من حرارة الجو ومن ضيق المكان، ومن رائحة العرق الذي يتفشى في السيارة، ومن أصوات الركّاب العالية... لذت بالصمَّت ، ولم يعد السائق إلى سؤاله.

عندما اجتازت السيارة القسم المعّبد من الطريق، راح الغبار الكثيف يلّف السيارة من سائر الجهات، كان الواقفون في مؤخرة السيارة مع الجالسين على غطاء المحرِّك في مقدمة السيارة يواجهون الغبار بالغناء، والمزاح... استمر الغبار يتكاثف، مندفعاً إلى داخل السيارة كزوبعة، وأحسست بالاختناق. قلت للرجل الجالس إلى جانب النافذة:

«أغلق النافذة ، اختنقنا.»

ردّ بعصبية: «الاختناق بالغبار أقل قسوة من حرارة الجو هنا.»

تلاقت سيارة (اللاند روفر) مع جرار قادم من الشرق... ارتفعت زوابع الغبار نحو السماء لتسد منافذ الرؤية... تأففت، سألني السائق:

- «هل أنت منزعج.»

- «أتراني سعيداً ؟»

- «ماذا ستفعل في كرم الجبل؟»

«سأعمل مديراً لمدرستها الإعدادية.»

مسح عن وجهه الغبار بباطن كفه، فتحوَّل الغبار الممتزج بعرقه إلى طبقة من الوحل «قل لي، يا أستاذ من الأول إنك المدير الجديد.»

- «هل كنت ستوقف الغبار.» مازحته.

- «يا أستاذ هذه حالنا، ولا أحد ينتبه إلينا... وكرم الجبل، بلا كروم، الله يسامح الدولة، هي في وادٍ ونحن في وادٍ آخر.»

لم أفكر يوماً أن هناك من يعيش القسوة التي أعيشها، بتُّ الآن أشعر أنني في نعيم مقارنة بعيش الناس هنا، وتمنيت لو ألتقي الرفيق عامر لأحدّثه عن الفقراء الذين كان يتحدث عنهم، هل كان يدرك حقاً أن ثمة فقراء يعيشون بهذه القسوة؟!

راحت السيارة تمرّ بين تلال واطئة، وبدت القرية متناثرة على سفح واسع، قال السائق: «هذه هي القرية، ألا تراها كصبية تتمدّد على سفوح هذا الجبل العالي؟؟! أنت محظوظ، يا أستاذ... ستكون سعيداً فيها.»

رحت أضحك في نفسي «المشكلة. أن هؤلاء يرون أنهم في النعيم.»

ونحن ندخل القرية، بَدَت المنازل ترابية، أشبه بأكوام من الأحجار البيضاء...

كل شيء في القرية يوحي بالفقر... والشقاء، ووجوه الرجال والنساء جافة كأشجارها التي عرّاها خريف جاف. قال لي السائق: «هذا الخريف هو الأكثر جفافاً طوال عمري، كلُّ شيء جاف، كل ينابيع القرية جفَّت ما عدا نبع واحد يبعد عن القرية مسافة ساعة مشي، يتكوَّم عليه الناس من عدة قرى للحصول على جرّة ماء للشرب.»

كانت القرية تبدو كأكوام من الحجارة البيضاء، وخالية من الأشجار، وهذا ما جعلني أشعر بالكآبة.

استقبلني في مدخل المدرسة، نظمي مدير المدرسة الابتدائية، كان قصير القامة، منفوش الشعر، لم يحلق ذقنه التي وشاها الشيب منذ زمن، قال وهو يضحك: «حظُّك السيئ قادك إلى هنا.»

وسال لعاب من طرف فمه وهو يضحك، وانسكب على ياقة قميصه الرمادي،

راح رأسي يدور، ويدور كمروحة تكسّرت بعض أجنحتها.

وراح نظمي يفهمني أن الناس فقراء، منهم من يملك (حاكورة) صغيرة حول بيته، أو في البرية يزرعها بتبغ «شك البنت»، وثمة من لا يملك شيئاً...

معظم شبابها يذهبون إلى الجيش، أو إلى لبنان للعمل، وماء الشرب تحمله النساء في جرار من نبع الماء البعيد عن القرية، فالمرأة تمضي ساعات للحصول على جرة ماء .

أتعبني حديث نظمي الطويل في أمور كثيرة حول القرية، لم يكن رأسي معه ، قلت له: «سأغادر الآن إلى المدينة.»

- «لم تصل بعد؟!.. انتظر لنشرب الشاي.»

- «لا.»

ضحك: «لن تجد سيارة، ستذهب على قدميك، وقد تأكلك الوحوش في الطريق...

انتظر إلى الصباح، اليوم نزور المختار أو رئيس الجمعية الفلاحية، رئيس الجمعية رفيق، سيرحب بك ، ألست رفيقاً ؟

لم أجبه، قلت: «أنا سأغادر.»

قال: «من الآن أقول لك ستعود إلى القرية مرّة أخرى، أنت تكّرر حكايتي يوم جئت إلى هنا قبل عشر سنوات، صُدِمتُ

بالواقع، تركت القرية، وذهبت إلى التربية وطلبت نقلي، لم يصغ إليّ أحد، منذ عشرة أعوام وأنا أطلب النقل، وأوَاجه بالصمت نفسه.

التفت إلى الشرق، ثمة سيارة لاند روفر حكومية قادمة من الشرق،

قال نظمي مدير الابتدائية «أنت محظوظ، أعرف سائق السيارة.»

ورفع له يده للتوقف، وقال للسائق: خذه معك، واعده إلينا صباحاً.»

وراح نظمي يضحك: «أنا بانتظارك، وسأجد لك غرفة للسكن.»

* * *

في التربية.

حاولت إقناعهم بالانتقال من «كرم الجبل...»

قالوا: «سنبحث في الأمر.»

هو الجواب نفسه الذي كان يتلقاه نظمي منذ عشر سنوات.

قلت لهم: «سأضطر لتقديم استقالتي.»

- «إن لم نذهب إلى تلك القرى البعيدة الفقيرة كرفاق من سيذهب؟»

قلت: «ولماذا يتركها الرفاق يتناهب أهلها الفقر والشقاء، والأفكار؟»

ضحك مسؤول التربية «اسألهم.»

عندما عدت إلى قرية كرم الجبل. استقبلني مدير الابتدائية بحفاوة، وقال لي: «رتَّبتُ لك غرفة مفروشة بسرير حديدي وطاولة وكرسيين من السعد، ولها إطلالة جميلة، من نافذتها ترى السفن التي تبحر في أعلى البحر، ماذا قالوا لك في التربية... بالتأكيد وعدت بالنقل؟!»

,قلت: «كما وعدت أنت يوماً».

قال: «إذاً رتّب أمورك لحياة طويلة هنا.»

كان أغلب المعلمين بالمدرستين الابتدائية والإعدادية فيهما منذ سنوات، قال نظمي مدير المدرسة: «رتب وجودهم هنا جهة لأسباب سياسية... انتبه منهم، ولهم أنصار في القرية، والناس هنا يصدقونهم. أنصحك ألا تدخل معهم في حوار سياسي، لا جدوى من الحوار، هم لا يفهمون سوى لغة الشتائم.»

كان نظمي لطيفاً، ومُحبّاً للمزاح، يعيش خارج كل شيء، وأظنه وجد بي نافذة للخروج من صمته الطويل خلال وجوده

في القرية قال: «أشعر أنني في واد، وهم في واد، لهذا اعتكفت في بيتي ومدرستي، أظن أن التربية نسيتني، بين الحين والحين يأتي موجّه التربية، يشرب الشاي عندي ويغادر.»

كان ينشدني بعض أشعاره، كان يضحك طويلاً في نهاية كل قصيدة «الحياة هنا تجعلك شاعراً أو مجنوناً، الحمد لله أنني نجحت في الحصول على الأمرين معاً» الجنون والشعر. قل لي: هل أعجبك شعري؟ وقبل أن أجيب يضحك.»

«البيئة الضيقة تجعل الشعر ضيق الرؤية، أعرف ذلك.»

امتدحته: «لو عرفتك من قبل، لنشرت أشعارك.»

قال: العاملون في الصحف لا ينشرون إلا لأصحابهم، جرَّبت النشر في كل الصحف، لكن دون جدوى، الإعلام إعلام سلطة، ليس ثمَّة مشكلة، الحمد لله أنك تحسن الاستماع ليس كهؤلاء الذين يعملون معي، هؤلاء فقط للحكي في السياسة، وهم لا يفهمون ألف باء السياسة.»

حقيقة... لم أكن أتوقع أن واقع القرية بهذه القسوة.

يوم حكيت لفؤاد وناصر كيف يموت المريض في قرية كرم الجبل على الطريق قبل أن يصل إلى عيادة الطبيب، وكيف تمضي النساء معظم أوقاتهن على نبع الماء لملء جرارهنَّ، قال ناصر:

«المسؤول عندنا لا يملك إرادة العمل والبناء.»

قال فؤاد: «يتحدّث عن الفقراء والكادحين وهو لا يعرف حياتهم، بارع بإلقاء الخطب المدجّجة بالعبارات الجاهزة، والناس بارعون في التصفيق.»

- قلت: «سأجد حلا لمساعدتهم».

راح فؤاد يضحك: «جد حلاً لمشاكلك أولاً.»

اتجهت إلى قائد المنطقة في مدينتنا، أذكر أنني التقيته في مكتب رئيس تحرير مجلة جيش الشعب، وتعارفنا، وذهبنا إلى الغداء بدعوة من رئيس التحرير، رحبّ بي، وتفهم ما جئت لأجله لخدمة (كرم الجبل) وقال: جئتني في الوقت المناسب، تعال صباحاً لنرى الطريق معاً، والقرية، وأهل القرية لنرى استعدادهم للمشاركة معنا بالعمل الشعبي.»

صباحاً...

عندما وصل مدير المنطقة إلى القرية، تجمّع الناس في المدرسة القرية، وجاء المختار، ورئيس الجمعية الفلاحية، وأنشد نظمي مدير المدرسة الابتدائية قصيدة طويلة تحية لقائد المنطقة، وطالب الناس بالهتاف، لكن قائد المنطقة قال للناس: «الهُتاف، هو أن تتحرّكوا للعمل منذ الصباح.»

قال له نظمي: لأول مرة أرى مسؤولاً لا يحب الهتاف.

* * *

تعمّقت العلاقة بيني وبين كثيرين في القرية، دخلت منازلهم، وشربت معهم القهوة، وحضرت بعض أفراحهم.

قال مدير المدرسة الابتدائية: «أنت تأخذ نفسك إلى المواجهة مع ناقمين على الحاضر، انتبه إلى نفسك، زملاؤنا هنا، وآخرون يريدون بقاء القرية في شقائها، للاستثمار السياسي.

أعجبني التعبير، قلت: «لأول مرة أسمع بمصطلح الاستثمار السياسي.»

ضحك: «ليس الرفاق وحدهم ينتجون المصطلحات، الذين يفهمون متروكون على الهامش، وأنا واحد منهم، وستكون أنت مضافاً إلينا، انتظر.»

كان لدي قناعة بكلام نظمي... في أخر مرة التقيت فيها الرفيق الذي حلّ في مكان عامر.

لم يهتم بحديثي عن القرية، قال كلاماً غبياً «الناس معنا وإن لم نتواجد بينهم أو نقدم لهم.» قلت: «الناس مازالوا يحلمون، أخشى أن تموت أحلامهم، وينفضّون عنا.»

قال باستعلاء: «هذا تنظير.»

* * *

زرت رئيس الجمعية الفلاحية في بيته...

من خلال لقاءاتنا في العمل على تعبيد الطريق، تعمّقت العلاقة بيننا، في هذه المرة، كنت بحاجة لمساعدته لجمع الناس لزراعة غابة حراجية في أول القرية من جهة الغرب، خلال الزيارة، رأيت ابنته فاطمة.

دهشت بها من نظرتي الأولى ورحت أتأملها باندهاش.

توقفت نظراتي على تفاصيل وجهها... عيناها عسليتان، وجبينها مرتفع ، تحت غُرّة يميل لونها إلى الخرنوبي، انزاحت إلى جانب من جبينها، فأعطت استدارة أنيقة لوجهها الحنطي، وكانت جدائل شعرها المنسدلة على طرفي عنقها المشرئب كعنق

زهرة جورية، تمنحها جمالاً، وتبدو قامتها بفستان مطرَّز على الصدر والخصر مزدانة بالرشاقة، والحيوية.

أحست فاطمة بنظراتي الجريئة على وجهها، وأنا في العادة خجول، ولكن فاطمة سحرتني، وحررتني.

أشاحت بوجهها جانباً، وتغانجت ابتسامتها، وهي تسألني:

«أستاذ، قهوة، أم شاي؟»

- «شاي.»

لا أدري إن كان والد فاطمة قد أحسّ بما رحت أشعر به نحو فاطمة، كان منشغلاً بالحديث معي عن القرية والناس وعن أولاده، وأطال الحديث عن فاطمة التي حَصَلَت في العام الماضي على الثانوية العامة، ولم يستطع إرسالها إلى الجامعة، قال: أبناء القرية محرومون من الجامعة بسبب سوء أحوالهم.

في الواقع...

ضعف الحال أوقف طموحاتهم، وطموحات أهاليهم، يوم قلت ذلك في منتدى يتحدّث عن ضرورة التوجّه نحو القرى الفقيرة النائية، ردّ عليّ مدير الندوة: «نحن نقدَّم رؤية، لا أكثر.»

ودار حوار طويل بيننا اتصف بالحدِّية، ونحن نغادر الندوة قال فؤاد: «وسيم، أنت تضع نفسك في المواقف الصعبة، تتحدث وكأنك تتحدث عن أهلك، الأمر ليس كذلك، اطرح ما تريده ، ولا تدقق في مواقف الآخرين... السبب في حماسك هو ما زرعه فيك الرفيق عامر زرع فيك هذا الوجع. يا أخي، اترك الفقراء بحالهم، هل أنت أرحم بهم من الله، كان على الله أن يجعلهم أغنياء.»

أزعجني تعليقه، فقلت: «لهذا جعل الله أخاك أحمد غنياً؟!»

ارتفع صوته بعدة شتائم، وابتعد.

ظلت عيناي على وجه فاطمة وهي تقدم الشاي «تفضل.»

كانت أصابعها طويلة، مدببة إلى الأمام، تحيط معصمها «بشريط قماشي أخضر»، عرفت فيما بعد أنها أحضرته من مقام القرية للتبرّك به.

سألتها وهي تجلس قبالتي: «هل تحبين المطالعة؟»

أومأت برأسها، وقالت بصوت هادئ: «نعم.»

قلت: «سأحضر لك بعض الكتب.»

- «سأكون ممتنة لك.»

بعد أيام...

أحضرت لها بعض الكتب، وبعض الصحف التي تحوي مقالات لي، عندما شاهدت على بعضها اسمي وصورتي، سألتني: «أنت كاتب؟»

قلت: «نعم.»

راح الفرح يزهر في عينيها وعلى وجهها وفي صوتها وهي تقول لأبيها:

«أستاذ وسيم كاتب.»

وراحت تحدّثني عن محاولات شعرية ونثرية كتبتها في دفتر أحضرته، قرأت في بعض صفحات الدفتر شعارات وأفكاراً ماركسية، سألتها عن السبب.

عرفت أن بعض فتيات القرية وشبانها يحصلون على كتب ومنشورات سياسية يوزعها بعض الأشخاص، بعضهم في القرية، وآخرون يأتون من قرى مجاورة، ويتحدثون عن الظلم الاجتماعي وقصور الدولة في تقديم الخدمات للفقراء في المنطقة.

تكرَّرت زيارتي لوالدها بسبب فاطمة، وكانت تلاقيني بابتسامة خجولة، وبمرور الوقت خرجت من حيائها، وراحت تسألني رأيي بـ (كرم الجبل) وعن مشاعري عنها والناس فيها.

وكانت في كل زيارة لوالدها، تسرع لإعداد الشاي أو القهوة، وتمازحني، عندما تعد القهوة المرة «القهوة المرة تنعش.»

حدّثت فؤاد عنها: «فؤاد أظنني وجدت الفتاة التي أبحث عنها.»

كان فؤاد الأكثر فهماً لأزمتي العاطفية ويشجعني دوماً على بدء عشق جديد: «العمر يمرُّ، ونبض العشق يموت في الروح تحت ركام الزمن.»

ويقترح عليّ فتيات يعرفهن أو يسمع عنهن، وكنت أرفض بشكل قاطع.

وكنت دائما أرفض: «فؤاد... لا أستطيع.»

حدّثته باستفاضة عن فاطمة. قلت: باختصار... هي فتاة أحلامي.

وذكرت له ما تقوله عفراء عن الحب المفاجئ: «مشاعرنا تنبت فجأة كالفطر، فعندما ترتجَّ الأرض بالرعود، وتمتصُّ

ضياءات البرق، في تلك اللحظة يولد الفطر، والحب يولد في لحظة ضياء.»

بدا فؤاد سعيداً لأنني بدأت أتحرر من سطوة جويل، قال: «أنا سعيد لأنك بدأت تفلسف نظرتك للحب، هذا تطور مهم، أظن، يا صديقي، أزفت الآزفة، واقتربت نهاية عذوبتك.»

كان عرسنا فقيراً بكل المقاييس، كنت أخشى ألا تكون فاطمة سعيدة بسبب ظروفنا المادية عندما حدَّثتها عن قلقي، قالت: «أنا واثقة أننا سنكون سعداء، وسنتجاوز مصاعبنا المادية، وأن فسحة من الضياء ستكون أمامنا.»

وكانت تصّر على أنها تثق بما تقوله.

- «كيف؟!»

- «لأنني أثق بك.»

يوم سألتني عن حبٍّ عشته قبلها، لم أحدثها عن جويل...

لكنها فاجأتني عندما سألتني عنها.

- «من أين عرفت؟!»

- أخبرتني أنها قرأتها في دفتر مذكراتي، اكتشفت فيما بعد أن فاطمة كتبت بقلم الرصاص على زاوية من الدفتر:

«ليس الماضي ذنباً، إن لم يصبح حاجزاً أمام المستقبل.»

وأتبعت تلك العبارة بعدة نقاط.

ما الذي كانت تقصد بتلك النقاط، لم أكن أدري، وهو ما أثار فضولي، لكن فؤاد، نصحني بالسكوت: «لا تسأل المرأة عن أمر يسكنها، عندما يصل الأمر إلى مرحلة القلق، يتحرك قلقها وأسئلتها كبركان.»

- 9 -

كنت حريصاً على بقاء الصداقة مع طاهر رغم التبدَّل الكبير الذي طرأ على تصرفاته وسلوكه معي، وفي محيطنا الاجتماعي، كانت مظاهر الثراء تبدو جلية عليه... أناقة لباسه وسيارته وموكبه، وثمة بناء فخم راح يقيمه على التلّة القريبة من بيت أهله الترابي، طاهر كان يقول: «أكره التلال لأنها أماكن لقصور الذين سرقوا دمنا وعرقنا.» وكان أصحاب المطاعم البحرية يتحدَّثون عن الحفلات التي يقيمها، أو تلك التي تُقام له.

لم يعد طاهر كعادته يتصل معي أو مع فؤاد كلما جاء، ويعلن عن اشتياقه لنا، وهو يقول: «تعالوا على الغداء أم طاهر أعدت لنا المجدّرة.»

بالتأكيد نسي طاهر طعم المجدّرة.

كنا نسمع مجيئه إلى قريته من آخرين ذهبوا لرؤيته طلباً في خدمة، لكنّه كان يرفض مقابلة أحد رغم محاولات والده:

«يا بني هؤلاء رفاق العمر، أو أبناء رفاق عمر، فقراء من طينتنا، ساعدهم.»

وتبوء محاولات والده بالرفض.

ويردَّ والده بعصبية، «ولكنك تستطيع مقابلة الأغنياء الذين أكلوا لحمنا وتركونا عظاما، لا تخرج من جلدك، يا بني وتذّكر: لا شجرة وصلت إلى السماء، وأنت ستكسر، ولن ترى أحداً من هؤلاء في الزمن الصعب، ستظل بنظرهم ابن أبي طاهر الفقير ولو وصلت إلى أعلى القمة، وعندها ستتذكر أنك ابن أبي طاهر، وأن هؤلاء كانوا ينافقونك.»

حدثني والد طاهر بألم عندما زرته، قال: موقف طاهر من الناس يؤلمني ويحرجني لماذا نغضب من أغوات زمان، أغوات اليوم أسوأ.

* * *

أخبرني فؤاد أن والد طاهر دخل المشفى بنوبة قلبية، وخرج منه. كان في رأيي أن طاهراً السبب، والدليل عندما جاء طاهر إلى المشفى قال لزوجته: «لا تسمحي لطاهر برؤيتي.»

راحت أم طاهر تبكي: «ماذا سيقول عنا الناس، طاهر ابنك.»

فاجأنا وجود طاهر في منزل والده... لم أتبادل معه القبل كعادتنا وأنا أصافحه.

تابع حديثه إلى رجال لم أرهم من قبل، قال لي والده:

- «إنهم جاؤوا من دمشق.»

سألته: «لرؤيتك؟»

ابتسم: «بل لرؤية طاهر، هم قالوا له من أجلي، هو لم يعد يأتي لأجلي.»

اتجه نحوي، وقال: «وسيم، أتمنى أن تكون معي في الحديث.»

وتابع حديثه معهم قائلاً: «حكاية الفقراء والأغنياء صارت من الماضي، ومنطق التطوّر يفرض رؤية جديدة علينا كدولة وحزب، الوطن للجميع، والفرص للشطار، والكسل في العمل ليس ثورية، أو نقاء طبقي.»

ثم سألني: «ما رأيك رفيق وسيم؟»

أظنُّه كان يريد استفزازي، وقال فؤاد: «لا ترد، صمتك سيزعجه.»

ولأنني لم أجب على سؤاله، اتجه طاهر إلى الآخرين وقال: «الرفيق وسيم مهتم بالفكر والثقافة، وله آراء يرى أنها الصواب، الرجل متمسك برأيه، وهنا المشكلة، أحياناً، أجد له ولبعض الرفاق من أمثاله العذر لبقائهم في مدن صغيرة لم تفتح بعد عقلها للتطور.»

قلت ساخراً: «يبدو أنَّ المدن الكبيرة تدير الرؤوس كما تديرها الخمرة، وعندئذ يصبح كل شيء مباحاً، حتى أوجاعنا القديمة ننساها.»

تجاوز إجابتي، وغيّر اتجاه حديثه، وراح يُحدِّث ضيوفه عن أحلامه ببناء حديقة حول المنزل تضمُّ أشجاراً نادرة مثمرة، وغير مثمرة. وعندما هبت رياح شرقية باردة، جاء جنديٌّ وألبس طاهر عباءة وحذاءً مبطّناً بالفرو وهو جالس على كرسيه الهزَّاز، عاد فؤاد يهمس لي: «هل فعلها أغوات الماضي؟»

قلت: «دعنا نغادر.»

* * *

كان لقائي مع طاهر محرِّضاً لكتابة دراسة بعنوان:

«عندما تصدأ الثورة»... تشير إلى ضرورة التشابك النضالي بين الفكر والممارسة، لأن الثورة تصدأ كما يصدأ الحديد، ولهذا لا بدَّ هنا من نارٍ تحرق الصدأ وتعيد للحديد نقاءه وقوَّته، نشرتها في صحيفة لبنانية.

أخبرني المسؤول السياسي في مدينتنا أن مسؤول الإعداد في دمشق يريد رؤيتي... لم يقل لماذا، دارت في رأسي أسئلة، قال فؤاد: «كنت أتوقَّع المساءلة منذ زمن حول ما تقوله من أفكار، لماذا تحمل صليبك بالعرض يا رجل، هل طاهر وراء ذلك؟»

قلت: «لا يفعلها، هل وصل إلى هذا المستوى؟»

قالت فاطمة: «وسيم... في الأيام الأخيرة بتْ شديد الحساسية، هل أنت المطالب وحدك بمواجهة تلك التبدلات التي باتت تصيب طاهر وآخرين، عليك أن تعيد النَّظر في مقاساتك الأخلاقية والنضالية، أو أن تصمت وهذا أضعف الإيمان.»

نصحني فؤاد بالتواصل مع طاهر ولو كان السبب.

قلت: «أرفض، ولو كنت على سكين الذبح.»

- «تجاوز حساسيتك، يا رجل، وتواصل معه، للرجل أهميته في العاصمة.»

- «أتريدني أن أقف أمام طاهر مستجديا حمايته؟!»

- «كن دبلوماسياً، هل طاهر أذكى منك.»

- «طاهر أكثر قدرة على خلع جلده.»

قالت فاطمة: «لا أريد لزوجي أن يكون صغيراً في حضرة طاهر، سافر! فأنت لم تكتب سوى قناعاتك، وهي قناعات حملتها من الثورة نفسها.»

* * *

بدا المسؤول السياسي في دمشق لطيفاً، ومتفهِّماً لمضمون الدراسة، سوّغ لقاءه معي على أنه استئناس بأفكار قدمتها، قال: «الثورة تحتاج إلى مثقفين، لأنهم نسغ الثورة، عندما لا يكونون، تصاب الثورة بالذبول... ثم باليباس.

وأردف بلغة أدبيّة: «المثقفون أقمار الأحزاب إن غابوا طغت العتمة.»

تذكرت الرفيق عامر، كان يقول كلاماً مشابهاً عن الثقافة والمثقف في الأحزاب الوطنية والقومية، ولكن بأسلوب البلاغة الأدبية العالية التي كان الرفيق عامر يمتلكها.

أعطاني المسؤول السياسي رقم هاتفه، وتمنى عليّ التواصل معه متى شئت.

لم يكن في ذهني زيارة طاهر، لكن مسؤول الأمن على الباب الرئيس، سألني إن كنت أعرف المقدم طاهر، وعندما أخبرته أنه صديق عمري، اتصل معه على الفور، وأخبره بوجودي، وسمعت المسؤول الأمني يقول له: «سأرسله إليك بسيارتي. كنت سأرفض، لاعتقادي أن في الأمر لغزاً، إصرار المسؤول الأمني أحرجني، وفي الواقع كنت لا أتمنى أن تصل العلاقة بطاهر إلى حدِّ القطيعة، فكلما حاولت تمزيقه في ذاكرتي بسبب أفعاله، عاد إليها بقوة.»

في الطريق إليه، كنت أتساءل:

«هل سيكون لقاؤنا سلبياً، لقاؤنا الأخير لم يكن مريحاً لي». وقررت ألا أدخل معه في حوار حاد. فاطمة قالت لي: «ما عليك سوى الصمت، في النهاية لن تضر سوى نفسك، ردود الفعل تؤذي القلب.»

يومذاك مازحها فؤاد: «وعندها تحترق صورتك.»

قلت: «فاطمة نبض قلبي.»

راح فؤاد يضحك: «من يقول إن وسيم لا يجيد الغزل؟»

في مكتب طاهر، رأيت نادر، قال طاهر عنه إنه يتسلم إدارة شركة نسيج كبيرة في دمشق «الخماسية سابقاً» وأفهمني أن نادر مرشّح لتسلّم وزارة الصناعة.

بدا نادر متكلّفاً في حديثه وجلسته وشديد التباهي بوضعه، يتحدّث عن علاقاته بتجار النسيج، ويرى أن تلك العلاقات تتطلب نوعاً من البراعة والذكاء، وسوّغ ذلك بالقول: «ماذا لو استفدنا واستفادوا؟!»

قال له طاهر: «انتبه، صديقي يصفنا بالآغوات الجدد.»

ثم التفت إليّ: «دعنا يا رجل نهرب من وجع الماضي، أنياب الماضي ما زالت تعضنا بقوة، لماذا ما زلت متمرّساً في خنادق الماضي، كل شيء يتغير.»

نهض نادر، وقال: «دعنا نكمل حديثنا على الغداء.»

طلب طاهر مني مرافقتهما.

- اعتذرت: «سأسافر.»

أَقَسَم بحياة أبيه أنني سأذهب معهما: «ولو يا رجل، من زمان وأنا مشتاق لرؤيتك.»

تذكرت قول فؤاد: «عظيم، ما زال طاهر يذكر أنك صديق عمر، ودراسة.»

ركبنا في سيارة طاهر المرسيدس بلوحة لبنانية ولحقت بنا سيارة نادر...

مع بداية الحرب اللبنانية ودخول القوات السورية إلى لبنان، كثيرون باتوا يركبون سيارات أنيقة تحمل اللوحات اللبنانية، في الطريق قال طاهر: «ما رأيك أن أهديك سيارة «مرسيدس» تليق بك وبلوحة لبنانية.»

رفضت...

ولكنه أصرَّ على عرضه، «يا رجل، لا تكن متطرّفاً وحاداً.»

وأخبرني أنه سيؤمن لها (مهّمة) تتيح لي تعبئتها بالوقود مجاناً

قطعت الحوار بكلمة، «لا تحاول.»

- راح نادر يضحك: «ما زال صديقك يحافظ على عذريته الثورية.»

- قلت: سيارات المرسيدس مزقت عذرية الكثيرين.

دخلنا مطعماً فاخراً، أذكر أنني مررت مرات كثيرة أمامه، وأدهشت بأناقة واجهته، وأناقة السيارات التي تقف في ساحته

الواسعة، وكنت أتساءل: «كم عدد الذين باستطاعتهم الدخول إلى هذا المطعم البرجوازي، والذي وصفه طاهر بالمطعم الراقي» وأجبته: «إنه مطعم المتخمين.»

ردّ طاهر سريعاً: «بيننا اختلاف في المصطلحات.»

أسرع مدير المطعم مرحباً بطاهر «أهلا بالمعلم»، ومشى معه إلى طاولة محتجزة له وقال لنا: «أهلا بالأفندية».

أضحكني الوصف، غمزني طاهر، فهمت أنه يريدني أن أظلَّ صامتاً.

كان المطعم واسعاً وأنيقاً وباذخاً في مظهر أثاثه وملابس العاملين فيه، ويغصُّ بالزبائن من رجال ونساء تظهر عليهم آثار الغنى وخطر لي كلام الرفيق عامر: «نعمل على تحقيق التوازن الطبقي.»

رحت أشعر بالغربة فأنا في عالم خيالي، تصوَّرت نفسي في حلم خرافي، وراحت عيناي تدوران في المكان، جاءني صوت نادر: «ماذا تشرب؟»

- «نعم؟!» قلت ذلك وأنا أخرج من الحلم...

ردّ طاهر على الفور: «(ويسكي)... (ويسكي) للجميع.»

ثم مال إلى أذني، وقال بصوت خافت: «اخرج من قرويتك اليوم.»

صبّ النادل لي كأساً من الويسكي، رحت أشربه برشفات سريعة، أحسست بنشوة وأنا أشرِب، همس طاهر: «على مهل، أخشى عليك من السكر.»

حقيقة، راحَ رأسي يدور مع أحاديث طاهر ونادر وهما يتحدَّثان عن المال والنساء والسياسة والعلاقات الشخصية. لاحظ طاهر شرودي وعدم انسجامي مع الحديث.

- سألني: «ما بك... عليك أن تتعلم على هذه الأحاديث... أنت اليوم مشروع رجل مهم، ما رأيك أن تأتي إلى دمشق؟»

- «ماذا سأعمل هنا ؟»

- قال نادر: «أنا أتدبر لك عملاً مهماً في شركتي.»

راح خدرُ الويسكي يدور في رأسي، خشيت على رأسي من السقوط، وسقط كأس (الويسكي) من يدي على الطاولة، ثم انحدرت الكأس نحو الأرض وتناثرت، جاء النادل مبتسماً وراح يلملم شظايا الزَّجاج، خطر لي أن أسأل طاهر من سيجمع

شظايا رأسي الآن، وخطر لي أن أضحك، ولكنني خشيت على نفسي من سخرية طاهر، وقفت، وقلت: «أريد العودة إلى الفندق.»

هزّ طاهر رأسه، وكأنه عرف حالي: «ماشي، سيذهب سائقي معك.»

- «لا.»

- وسمعت نادر يقول: «صاحبك داخ.»

* * *

- ١٠ -

أدرت مفتاح الراديو منذ الصباح، لم يأتني صوت فيروز كما في كل صباح ليوقظ فيني اللهفة لبدء يوم جديد ممتزج بالرغبة لإعداد القهوة والنداء على فاطمة لنشربها معاً على «فرندا» بيتنا القرويِّ المطلِّ على البحر رغم بعدنا الجغرافي عنه.

راح المذيع يعلن عن اغتيال عسكريين في حلب وهم في طريقهم إلى معسكرهم، ويصمت المذيع. وتبدأ أغنية وطنية «سورية يا حبيبتي» بالتحرَّك في شراييني، سألتني فاطمة: «ما الذي يحصل؟»

كان صدى الأغنية الوطنية يأتيني أيضا من منازل الجيران، ورأيت جارنا واثق يقف في شرفة بيته، رفع لي يده، محيياً، وسألني: «وسيم، ما الذي يحدث؟» تظاهرت بأنني لم أسمع سؤاله، ودخلت إلى البيت .

ظلّ المذياع يعلن عن خبر جديد: «عصابات من الإخوان المسلمين تقوم بتفجير سيارة عسكرية تقلّ عسكريين ذاهبين إلى معسكرهم، وأن عدد الشهداء لم يعرف بعد» واستتبع الخبر بخبر آخر يعلن اغتيال الدكتور محمود الراشد في مدخل بيته في حلب.

صعقني الخبر، وصرخت: «لا... محمود!!»

سألتني فاطمة: «ما بك؟!»

- «اغتالوا الدكتور محمود.»

أذكر أننا التقينا في اللاذقية قبل أسبوع فقط، كان ينتظر انطلاق الباص إلى حلب... قلت له: «تعال نجلس في مقهى إلى أن ينطلق الباص، شربنا القهوة في مقهى الكراج، واستعرضنا في جلستنا ذكريات المدرسة ورحلاتنا المدرسية إلى مدينة «الطبقة» وغابات الفرنلق وكسب وقلعة حلب وتدمر وتحدثنا عن طاهر، سألني: «ما أخباره؟»

أخبرته أن طاهراً لم يعد كما كان أيام دراستنا.

قال محمود: «كثيرون صاروا مثل طاهر، وهذا أمر يخيف، فتلك التبدلات النفسية والمادية لهؤلاء الذي كانوا يحلمون بالثورة سيقتل الثورة.»

واتجه بالحديث إلى ما سماه «بالخطر السلفي» قال: «أنا قلق جداً من تنامي الفكر المتشدِّد طائفياً ومذهبياً في الجامعات ومؤسسات الدولة، في حلب نعيش معهم، ونعرفهم، يمرحون ويسرحون، هذا الفكر هو الأخطر على الوطن.»

وأشار إلى مظاهر إطلاق اللحى، والتجمعات أيام الجمعة، والشعارات التي باتت معلنة في أماكن العمل وفي الجامعة.

عرفت أن الدكتور محمود متخوف من الاغتيال، هو لم يقل ذلك مباشرة، ولكنه قال إن الاغتيالات واردة، وقد تأخذ في البداية منحى طائفياً للعب على وتر الفتنة.

كان محمود على حق يوم تنبأ باغتياله.

* * *

كان موكب تشييع الدكتور محمود كبيراً، لكنّ أمه لم تبكِ، كانت شجاعة، وربما تيبست الدموع في عينيها، وقفت في وجه الجميع وقالت لهم: «أخشى أن يطمر النسيان ولدي.»

وراحت الأخبار تتوارد عن أعمال القتل...

كان الخبر الأبرز في الكلية العسكرية بحلب قام ضابط إخواني يدعى إبراهيم اليوسف بإطلاق النار على طلاب الكلية في قاعة المطالعة، قُتلِ كثيرون، وجرح المئات.

كان الخبر صادماً...

في كل يوم...

ثمّة أخبار جديدة: «تفجيرات واغتيالات على كامل مساحة الوطن».

فاجأني فؤاد أن أخاه أحمد تعرض لمحاولة اغتيال وهو يخرج من بيته وأصيب في خاصرته وأن من قام بعملية الاغتيال أحد حراسه. يبدو أن الإخوان تسللوا إلى الجيش، وإلى مفاصل هامة.

جاءني خبر محاولة اغتيال المقدَّم طاهر، لم يمت، فقط أصيب في ساقه إصابة عميقة، زرته في البيت قال لي: «عمر الشقي بقي.» وراح يضحك. كان قوياً، وكانت روحه المعنوية عالية، وأكد أن هؤلاء الخونة سيسحقون، قلت: «ألست متفائلاً؟» قال: «بل أنا واثق.»

سألته: «هل كنا نياماً؟»

لأول مرة يتجرَّد طاهر من عنجهيته في الحوار: «لا أعرف، كانوا يحفرون بأفكارهم الدموية عقول البسطاء، ولعبوا على الجانب الطائفي.»

- قلت: «هؤلاء البسطاء جماهيرنا.»

- «صحيح.»

- «تجاهلتم المسألة الفكرية، الثورة فكر أولاً... وممارسة ثانياً، الحرب مع الرجعية حرب ثقافية، يجب مقاومة الفكر بفكر.»

هزّ رأسه: «أنت تحاضر بي، يا رجل، هل أنا المسؤول؟»

- «أنت حلقة في سلسلة المسؤولية.»

* * *

كان الوضع يزداد سوءاً بمرور الوقت.

وتحوّلت مدينة حماه إلى معسكر كبير للإخوان.

وتسلَّم العقيد طاهر قيادة الوحدات العسكرية المقاتلة.

كان رأي ناصر أن نعيد النظر بعلاقتنا مع طاهر،«الرجل عاد إلى نقائه، وعندما يأتي إلى القرية سنزوره.»

خالفته الرأي: «طاهر لم يعد نقياً، مظاهر الانسلاخ الطبقي فكريا وثقافياً وسياسياً ظاهرة في تصرفه وحديثه، هل موقفه في حماه كافٍ لإقناعي أن طاهراً عاد إلى معدنه؟»

هو جندي، وأمام خيارين، إما أن يكون شجاعاً أو جباناً.

قال فؤاد: «أنا مع رأي وسيم، الرجل الخاضع لإغراء الحاضر، ويتجاهل وجع الماضي وأصدقاء الماضي، لن يكون نقياً.»

* * *

تتصل فاطمة «تعال فوراً، والدك بوضع صحي سيء.»

كان وضع أبي الصحي يقلقني، منذ زمن وهو يعاني من تعب في رئتيه، لم يكن خائفاً من الموت، كان يقول لي: «عندما يصل البحار إلى الشاطئ، لا يخشى الغرق، أنتم اليوم بخير.»

وكان يخصني بوصيته: «لا تخش أحداً، ولا تحزن على ما فات، وكن مع الله.»

كان نيسان في أوله، اتجهت به إلى الطبيب في مدينة اللاذقية.

قالت الممرضة: «سيتأخر الطبيب لبعض الوقت.»

قال أبي: «دعنا نذهب إلى الحديقة كما في كل مرة.»

اتجهنا إلى حديقة «البطرني» القريبة، كان أبي يحب زيارة تلك الحديقة كلما جئت به إلى الطبيب، فهو لا يهوى الجلوس في المقهى المجاور للحديقة...

قال لي مرة: «المقهى يشعرني بالضيق، و يعلم الكسل.»

جلس أبي على مقعد في مواجهة البحر، راح يحدثني وهو يتأمل«البور» كما يسميه، قال: «عملت في هذا البور مع كثيرين من فقراء الريف والمدينة في زمن إنشائه، كنا نعمل وننام في مكان العمل»، وتأوَّه: «أحياناً أشعر أن دم الفقراء حتى في القمح. كان هذا الميناء صغيراً، وكانت اللاذقية قرية كبيرة، كبرت المدينة، وكبر البور، وكبرت السفن التي تدخله، كان أبو هاني صاحبه، قاسياً... كل الأغنياء قساة على الفقراء، إن أعطاك الله يوماً وصرت غنياً.. تذكر أن الفقراء يتألمون، في وجع الفقراء ألم لا يعرفه إلا من عرف الفقر».

يمكنني القول إنني لم أرث من أبي ملامحه وحسب، وإنما ورثت مشاعره... بقيت مؤمنا بالفقراء.

بدا أبي متعباً، وراح يتنفس بعمق وهو يتحدّث، أظنه أراد أن يوصل آخر أفكاره التي لم يقلها لي بعد.

طلبت له فنجان قهوة من بائع قهوة قريب، ارتجفت أصابعه وهو يرفع فنجان القهوة إلى شفتيه، وارتجفت شفتاه، تطلَّع نحوي وكأنه قرأ قلقي عليه، وقال:

«البحّار تعب، يا بني.»

وغرقنا في صمت حزين... لم يكن لديه كلام، وبكى الكلام بين شفتي.

راح يتأمل البحر حزيناً وكأنه يودعه، لأول مرة أرى دمعة تجوب عينيه وتأبى النزول على خديه اللذين ظلا متفتحين بلون وردي هادئ ، بدت عيناه حادتين رغم حزنهما ، ونظراته ظلت معلقة إلى الأفق البعيد، وهو يقاوم حزنه ووجعه وبكاءه الداخلي بابتسامة بدت فاترة .

سألته: «أبي، أأنت تبكي؟»

هزّ رأسه، وظل صامتاً...

كان يحزنني وجه أبي، حديثه، صوته، نظرات عينيه ...

حديثه عن أمي التي يعشقها زوجة ورفيقة حياة صعبة.

حديثه الأخير عنها كان بشغف العاشق والمحب...اعتقدت أنه سيبكي، لكنه لم يبك، كان قوياً، وغير خاضع للبكاء...

لكن صوته الممتزج بالقوة تردد صداه في روحي: الحياة مشوار له بداية وله نهاية مهما طال.

ومدّ يده إلى وجهي، كانت أصابعه الراعشة مشبعة بدفء الحنان، وتمتم بدعاء لم أسمعه. «أكنت يا أبا صالح، تعرف أنه مشوارنا الأخير؟»

ظلت يده المرتعشة تتلمس وجهي... وراح قلبي يبكي...

أقلقه حزني، قال: «كن قوياً، الحياة لا تعشق إلا الأقوياء.»

في عيادة الطبيب، همس لي الطبيب: والدك متعب، عد به إلى البيت.

عصراً ...

بدا أبي وكأنه يريد أن يزيح كل أثقال عمره بابتسامة.

تأمّل وجه أمي... كانت بارعة في قراءة نظراته... قالت له بحنان المحب:

- هاهم الأولاد كلهم حولك.

همس لها، ورأسه محني إلى أسفل: انتهى العمر، يا أم صالح...

تنهدت، وابتلعت غصتها بعمق... «لا إله إلا الله.»

بدا أبي كسمكة خرجت لتوها من الماء ، تحاول أخذ أكبر كمية من الهواء. كان يريد أن يكمل كلماته، لكن نوبة سعال حادة اختطفت صوته.

وثمّة دمعة تضيء على أهداب عينيه: «خذوني إلى السرير»... وتأمل إخوتي...

بدا وجهه كوجه بحّار، وصلت سفينته المتعبة برحلتها الأخيرة إلى الميناء.

كان قوياً حتى في تلك اللحظة... وحدها أمي أدركت أن أبا صالح يجتاز لحظات عمره الأخيرة، وضعت يدها خلف رأسه، وعضت على شفتيها، لتوقف نزيف عمر راح يتفكك أمامها برحيل أبي.

قبل غروب الثاني من نيسان...

أغمض عينيه وأسلم روحه...

* * *

رحيل أبي، أوجع أمي، وجعل منها امرأة حزينة وكئيبة.

راح حزنها يتدحرج في أعماقها كصخور سقطت من جبل.

كان الحزن يرسم خطوطه على وجهها ويسكن عينيها ويمسك بشفتيها ليقتل ابتسامتها الجميلة التي كانت لا تفارقها.

قلت لها: «أمي... الحزن لا يناسبك.»

بكت... «بعد أن رحل أبو صالح، لا شيء يفرح.»

وضمت رأسها بين كفيها... وكأن عود ثقاب أشعل النار في أكوام ذاكرتها.

على غير عادتها راحت تقص عليّ تفاصيل رحلتها مع أبي...

وعندما تعبت استلقى رأسها في إغفاءة على وسادتها.

بعد موت أبي، أحسست بفراغ... لم أكن اعتقد من قبل أنه مهم في حياتي... كنت أجده كفنار يضيء لي الدرب... واليوم انطفأ الفنار، وضاعت روحي في محيط واسع من العتمة وهياج الموج.

زارني والد طاهر لتقديم العزاء. وتمنى عليّ أن أظل قريباً من طاهر «أنتما أخوة... قم بنصحه، طاهر ضائع، ومصاب بالانبهار بحياته الجديدة.»

قلت: «طاهر يهرب من ذاكرته.»

تنهد: «بقي أمامه أن يهرب مني...»

طاهر كسر اعتزازي بتاريخي، لا تظن أنني سعيد بما يفعله...

طاهر يطلب إليّ أن أنتقل إلى فيلته الجديدة، ليس من أجلي، قال:

«عندما يزورني الناس المهمون، يجب أن يرونك في مكان يليق بي» قلت له: «اخجل من نفسك، هل بيتنا يعيبك؟!... عليك... عندما يأتيك هؤلاء المهمون أن تحضرهم إلى بيتي الترابي وتفاخر أنك عشت في هذا البيت، وقل لهم إن هذا الرجل المتعب هو أبي... لكنه لا يفعلها، يأتي مرات إلى القرية ولا يراني، وتأتي زوجته وأولاده أحياناً إلى الفيلا، ولا يقولون هناك رجل شقي وتعب من أجل طاهر... آخ، آخ... ظلم الابن أصعب من ظلم الآغوات.»

* * *

غصّ مطعم النورس بعسكريين ومدنيين. وجلسوا حول الطاولات، وبقيت طاولة واحدة فارغة، انشغل صاحب المطعم بترتيبها، قال فؤاد: ثمة رجل مهم قادم.

قال ناصر: «هل يأكل هؤلاء سمك البلميدا مثلنا الآن؟»

لم أكن مهتماً بحوار ناصر وفؤاد فأنا ما زلت أعيش حالة من الحزن على رحيل أبي.

وكان فؤاد يحرص دائماً على ممازحتي، والعمل على إخراجي من أجواء الحزن، وكانت فاطمة تعرف مدى وجعي، فتلاقيني كلما عدت بابتسامتها، رحت أتابع النوارس وهي تطير على امتداد الشاطئ أمامنا، وثمة زورق يعبر، وفيه رجل وامرأة، تذكرت جويل.

قلت لها: «سأحملك في زورق بحري أرجواني اللون، كوجه الأفق، ونبحر بعيداً، بعيداً، تواكبنا النوارس، والموج، ونتأمل عبور أسراب السمك، وغيمات الأفق البيضاء، وهي ترسم أشكالاً جميلة.»

يومذاك، قالت جويل: «ونبحر إلى اليونان... خالتي تعيش في مدينة يونانية اسمها سالونيكا، موافق.»

«موافق.»

كانت أحلامنا بسيطة، وكنا نظنها قابلة للتنفيذ، اليوم... أجد هوة كبيرة وعميقة ومعتمة بين الحلم والواقع .

هزني صوت فؤاد: «أين ذهبت أفكارك، انتبه من جاء.»

أطل العقيد طاهر ومعه عدة أشخاص، عرفت بعضهم، أذكر أنني رأيت واحداً منهم في التلفاز، وكان برفقة طاهر، نادر.

قال فؤاد: «قم ، لنخرج لا أريد رؤية طاهر.»

لم أوافقه الرأي: «مالنا وماله، لا تنظر إليه، تجاهله.»

قال ناصر: «عيب علينا... طاهر رفيق عمر.»

تلاقت نظراتي مع نظرات طاهر، وتهيأت لملاقاته... لكنه لم يتوقف لكنه نظر إليّ بطرف عينيه، وقال بطريقة قرأت فيها استخفافاً:

«يقولون أنك أصبحت المسؤول السياسي في مدينتنا.»

وظل متابعاً طريقه نحو طاولة يبدو أنها مهيأة.

شعرت بدمي يفور، لأول مرة يصيبني هذا التفجر الحاد من الغضب،

«هل وصل به اللؤم للاستخفاف بي؟!»

قال ناصر: «ابق هادئاً، الرجل يبحث عن الشر.»

* * *

-١١-

جاءني طاهر إلى مكتبي في اللاذقية بدون مقدمات، فوجئت به يدخل المكتب، ومعه سرب من الحرس والمرافقين، بعضهم تمركز في الساحة، وآخرون أمام المكتب، وفي الشارع، فالمشهد بدا غريباً في المكان، ولسكان المباني المجاورة، وفي الشارع وساد همس «ثمّة مسؤول كبير موجود» واتصل زملائي معي إن كان بإمكانهم المجيء إلى مكتبي للسلام على العقيد طاهر ولكنني أخبرتهم أن العقيد طاهر في زيارة خاصة، وثمة أمر بيننا، وهو يعتذر، قلت لهم ذلك بناء على طلب منه.

قال طاهر إنه جاء لتهنئتي بمهمتي الجديدة... وأنه فرح من كل قلبه، وإن شاء الله الأمور مستقبلاً إلى أفضل «لا أحد أفضل منك.»

بصراحة... لم ارتح لحضوره، مجيئه المفاجئ جعلني حذراً، قلت في نفسي، «الرجل يضمر شيئاً.» وعلى الرغم من ذلك

رحبت به. طاهر اليوم في موقع مهم... وكثيرون ينظرون إلى زيارة طاهر لي بحسابات سياسية.

حاول طاهر أن يكون مرحاً ومتواضعاً، طلب قهوة لنفسه، ثم أخبرني أنه أحضر لي بهذه المناسبة « بذلة « من النوع الفاخر تليق بي، وقال: «عليك الخروج من بساطة عيشك، إن لم نترفه في زمن الثورة ، متى سنترفه؟، يكفينا ما عشناه من شقاء.»

لم أرفض هديته، قلت سيعتبرها إهانة، لكنني أقسمت بالله أنني لن ألبسها، وسأرتب أمرها لآخر، أو أقوم ببيعها، وصرف ثمنها على أناس فقراء.

وطلب من سائقه إحضار البذلة من السيارة .

قال: جربها الآن.

رفضت... «في البيت.»

لم يكرر طلبه، ولكنه قال: «هي غالية الثمن، لا تزهد بها.»

«يكفيني، أنها هديتك.»

ونحن نشرب القهوة قال إنه قام بتزكيتي لمهمتي الجديدة.

قلت مجاملاً: «أعرف أنك لا تقصّر.»

قال وكأنه يعطيني أمراً: «ستذهب معي دمشق.»

«لماذا؟»

أريد أن أفتح أمامك الأبواب، ما الذي ينقصك، فأنت الأكثر فهما بين الجميع، ستقابل المعلم، والرجل يريد رؤيتك، أنت في باله، ويقرأ لك، هو يريد أن يفتتح مجلة، وصحيفة، ربما يفكر أن تتسلمهما.

قلت: أفكر في الأمر.

«لا... سنسافر اليوم.»

اعتذرت: «لا أستطيع، زوجتي ستضع حملها بين ساعة ويوم.»

وكأنه أحس بليونة موقفي، طلب قهوة ثانية، وتابع:

«كانت مواقفك تحرجني، لماذا تضع نفسك في الموقف الصعب؟»

قلت: «المشكلة أنني لا أستطيع أن أكون تابعاً.»

تغيّرت ملامح طاهر، وبات متجهماً.

ولكنني حرصت ألا يفهم أحد من حولي أن طاهراً جاء ليتهددني، وهذا سيضعفني أمامهم، وكنت على يقين أن بعضهم سيكون شامتاً. لهذا قلت: «أنت فهمت موقفي خطأ، ألم أقل لك دعني أفكر.»

* * *

سألني فؤاد: «لماذا جاء طاهر لزيارتك، أأراد تهنئتك، أم لأمر لا أظنه خيراً، أم أنكما أصبحتما صديقين من جديد ومن وراء ظهري؟»

قلت: «ووصلك الخبر فوراً.»

ضحك: «قل وصل المدينة كلها... الجميع هنا يتحدثون عن الزيارة، أحد زملائك أخبرني أن المستقبل بات أمامك مفتوحاً، كل شيء اليوم يقوم على الدعم، ما الذي تخسره لو نسجت مئة حكاية عن زيارة طاهر لك، وعلاقتك بمعلمه.»

«سأخسر نفسي... أنا رجل مبادئ.»

«حساباتك ضيقة جداً، وفي النهاية ستغلق عليك الدنيا كلها... البارحة كنت في جمعية الولاء، وصفوك بالمعادي للمرحلة... أنت اليوم بين نيران كثيرة ، يكفي مواجهتك لمن حولك ، أخرج من هذه الحروب كلها، وامش مع طاهر دون أن اعرف ما يريده منك... أنت اليوم أشبه ببطل رواية «طواحين الهواء.»

كانت جمعية الولاء قد تشكَّلت خلال أحداث الإخوان المسلمين الدموي. كثيرون انتسبوا إليها في الأحزاب ومن خارج الأحزاب، والمفاجأة أن فؤاد بات يشغل فيها موقعاً قيادياً، وعندما سألته إن كان مؤمناً بأفكارها، أجابني:

«أحتاج لوجود معنوي بعد أن غادرت الأحزاب، وتخلى أخي عني.»

قلت: «ولتغطية عملك مع جماعة تهريب المواد الكهربائية، والدخان؟»

اعتصر رأسه بين كفيه، وتنهد: «هي حكاية موجعة، أحد أبطال مسرحية التهريب تزوج من ابنتي شادية، كنت رافضاً هذا الزواج، ولكنها كانت مصرة على الزواج منه، ولو اضطرت للذهاب معه، قلت تفعلها، فوجدت نفسي أوافق.»

«ووافقت على العمل بإمرة زوجها، أهي نهايتك يا فؤاد... مهرب!؟»

«لا... لست أكثر من قطعة في المكتب، كالكرسي الذي أجلس عليه، ومهابتي أمام الجميع من كون مدير العمل زوج ابنتي، حقيقة، أشعر بالذل... يمارس علي سطوته كموظف، ماذا أفعل.»

«اترك العمل.»

«أريد العيش كالآخرين، كما يعيش أخي، ويعيش طاهر... ويعيش كثيرون، البلد امتلأت بالقصور والسيارات وأنا ما زلت

غارقا في أوهامي الثورية... انظر إلى ما يجري حولنا. كل شيء يتغير... المجتمع يتغير، عدنا إلى المثل الذي يقول معك فرنكاً، تساوي فرنكاً... ما قيمة ثوريتك أمام رجل كمحمود الراعي من وراء الطرش إلى واجهة المجتمع بين يوم وليلة. عندما يأتي لزيارة صهري في مكتبه، تفتح له الأبواب، كل من تعرفهم في هذا البلد يفتحون أبوابهم له.»

أتريد أن توهمني وتوهم نفسك بذلك؟!»

عاد يعتصر رأسه بين كفيه:

«المثل العامي يقول: «من لا يعرف يقول إنه كف عدس.»

*   *   *

- ١٢ -

قال فؤاد:

«الأوضاع في دمشق ليست مريحة ...

«جماعة معلم طاهر مستنفرون في دمشق وحولها، وطاهر من يدير اللعبة، أنا خائف.»

سألته: «أين يضع أخوك أحمد العموري رأسه، وأين يضع قدميه؟»

راح يضحك: «لا تخش عليه، أحمد ابن زمنه، يقول أبي إن أحمد يشبه خاله منجد، منجد رجل من الماضي، كان يجيد اللعب على ألف حبل في وقت واحد.»

«المهم... ما الوضع؟»

قال فؤاد: ما سمعته من صهري، ثمة كلام عن تحرك في بعض القطع العسكرية حول العاصمة.»

استمرت الأزمة قرابة الشهرين، ويوم انتهت، وخرج معلم طاهر ومعه كثيرون إلى خارج الوطن، رفض العقيد طاهر المغادرة، هذا الموقف جعلني أفكر بالتواصل معه لقناعتي أن طاهر في النهاية سيعود إلى معدنه.

وعندما اتصلت، قال: يبقى الوطن الأهم.

بعد أشهر...

التقيته مصادفة على الكورنيش البحري في مدينتنا، كان يمشي مطرّق الرأس، وبدا كشجرة أصابها الذبول ...

رحت من بعيد أتأمل مشيته المتعبة، وانتكاسة رأسه، وانحناءة كتفيه، وذبول عينيه، حزنت من أجله ، كان طاهر قبل الأزمة يمشي وقدماه مشدودتان إلى الأرض، وكأنه يقول بحسب المثل العامي « يا أرض اشتدي ما حدا قدي...»

راح الماضي يستيقظ في ذاكرتي... في المدرسة الابتدائية، التقينا، وصرنا صديقين حميمين، وتبادلنا الزيارات، كان بيت أهله ترابياً فقيراً، تنام البقرة الحلوب فيه إلى جانب العائلة شتاء، كان هو الحال نفسه في بيتنا... ويمكنني القول إن حياتنا كانت تتشابه، وكذلك أحلامنا وحكاياتنا ونظرتنا إلى الحياة،

كان طاهر أكثر غضباً من الواقع، تعرفت على والد طاهر وأحببته، كان الرجل صديق والدي، وكان حديثه عن الفقر والظلم والمستقبل يشبه حديث أبي.

اقتربت من طاهر، وتحرشت بصمته «ولو، كن واقعياً.»

راح طاهر يتحدَّث بمرارة عن الحياة التي يعيشها الآن، قال بلغة المهزوم:

«لا أحد يفهمني، أنا أعطيت الوطن، قاتلت في لبنان، كان بيني وبين الموت لحظات، واجهت الاجتياح الإسرائيلي، اسأل عن فوج العقيد طاهر، ما زال العسكريون يروون الحكايات عنه، وفي حماه قاتلت العصابات الإرهابية... ورغم كل ما قدمت وجدت نفسي على الرصيف.»

كان يدخن بعصبية وهو يتكلم «أنا أعطيت لبعضهم وجوده، كان بعضهم يقف ببابي ساعات لأقابله، بين يوم وليلة صاروا مناضلين، على من؟»

بدا وكأنه على حافة التفجر... أردت إنهاء اللقاء بعبارة عاطفية:

«طاهر... مهما حدث... ستظل صديق عمري.»

برم رأسه، «لم أعد أصدق أحداً...»

سألني : ماذا عنك وعن ماجد ، كان من رجالنا، وتحول إلى الجانب الآخر، كيف لمثل هؤلاء التحول، وكيف يتم قبولهم، التحول السياسي في هذه الحالة أشبه بالتحول الجنسي .

كثيرون كانوا يعتقدون أن «ماجداً» زميلي في العمل أسطورة...

كان المسيطر على قرار المؤسسة، ورغم إدراكي أن من يقف في مواجهته سيهزم... ويصنف معادياً، واجهته، وأشاع أنني من جماعة المعلم طاهر، عندما قلت ذلك لطاهر، راح يضحك، ويضحك، سألته «ما بك.»

قال: «إنها حكاية العاهرة عن الشرف.»

وعلى الرغم من ذلك واجهت تصرفاته وسلوكه وآراءه، كنت منحازاً للفقراء، ولقناعتي الفكرية، وكان الرفيق مصطفى في العاصمة يشد على يدي، ويؤكد صحة مواقفي.

كان موقف الرفيق مصطفى يشعرني بالثقة، والأمل أن ثمة من يقف مع الحق، ولن يتركني في زمن العاصفة كما كان يسمي فؤاد المرحلة التي وصلنا إليها. كنت وحيداً في مواجهة «ماجد»، وكان الجميع معي، خارج جلسات القرار.

كان ماجد من طينة، وأنا من طينة، كانت قناعتي كما قال الرفيق عامر يوماً:

«إن من في فمه ملعقة من ذهب، لا يفكر بحال من في فمه ملعقة خشب.»

صدر قرار بحل المؤسسة.

قال فؤاد: «لا تفرح، يا صديقي، لكل واحد من زملائك حضن يدفئه، وماجد سيكون في موقع أفضل، وحدك ستلقى في العراء، أنت مقطوع من شجرة، كيف جئت إلى مهمتك... هي أعجوبة ، أنت تعرف بطاقات المرور السائدة.»

قلت: «لا يهم .»

قال: «دع الشجاعة الثورية التي مارستها تمنحك مقعداً في سيارة أجرة من أمام بيتكم إلى المدينة، سيقول السائق في سره كم كان هذا الرجل غبياً.»

زمن القديسين انتهى.

زميلك «مهران» غادر مهمته كما غادرته، أنت وهو في قرار واحد... وكان وضعه المادي أسوأ من وضعك يوم التحقتما معاً بعملكما... لكنه لم يحمل صليبه مثلك بالعرض، رآها فرصة،

واستغلها... منذ اليوم الأول إلى انتهاء مهمته، اشترى سيارة، ودار بها المدينة وكأنه يقول للناس «لم يتغيّر شيء... ها أنا أركب سيارة أكثر فخامة.»

«الناس، يا صديقي، تقرأ المظاهر، حتى الفقراء الذين أحببتهم يقرؤون المظاهر، رأيت مهران مساء ينزل من سيارته على الكورنيش بمحاذاة مقهى الشاطئ، وبرفقته رجلان، أظنه تعمد أن يكونا برفقته كحالة مظهرية، قال لي، «ثورية صاحبك... أوصلتنا إلى هنا، قل له لدي دراجة هوائية، أأرسلها له ليتنقل عليها بين بيته والمدينة.»

نظرت في وجه فؤاد، كان في صدري كلام غاضْب، لكنني بقيت صامتاً... أظنه فهم ما أشعر به، اقترب مني، واحتضنني:

«أنا أعرفك، والله أتكلم من حزني عليك، وأعرف أن هذا حال الشرفاء...

اذهب إلى دمشق، وقابل الرفيق مصطفى... كنت تحدثني عن احترامه لك، هو رجل قرار، لا أحد سيساعدك إن لم يساعدك، فأنت مقطوع من حجرة، ورغم ذلك حاول، هو يعرفك ، ومن لا يذكّر بنفسه يطويه النسيان.»

* * *

لم يكن استقبال الرفيق مصطفى حاراً كما توقعت، تمنيت أن يسألني ماذا تريد؟

لهذا ترددت في الحديث، لكن مدير مكتبه همس لي:

«تكلم.»

رحت أتحدث، والرفيق مصطفى يصغي، وبعد أن انتهيت من شرح ما حصل، قال باختصار شديد «هكذا كان القرار.»

«بعض زملائي رتبت أمورهم، ومنهم ماجد أساس المشكلة.»

«ليس قراري.»

أدركت أن الرفيق مصطفى هو الآخر تغيّر...

أخبره مدير مكتبه أن ماجد على الهاتف، وأظنه تعمد أن أسمع أن من على الهاتف هو ماجد... بُهرت بالعبارات الثناء التي راح يقولها الرفيق مصطفى لماجد، لهذا نهضت، دون أن أودع ، فقط رفعت كفي، وخرجت.

كان في مكتب الرفيق مصطفى رجل تبدو على وجهه آثار سنوات شقاء وتعب وتجربة ، ناداني:

«يا رفيق ... لا تتحدث عن نظافتك، هم يحتاجون إلى أبقار حلوبة، هل فهمتها؟»

في تلك الزيارة إلى دمشق، زرت صديقاً يعمل في الإعلام... وفي موقع متقدم.

اقترح عليّ الانتقال إلى دمشق للعمل في الصحافة، قال:

«أنت في الأساس إعلامي، عد إلى الإعلام... العمل السياسي لم يعد عملاً فكرياً، حتى العقل يتجمد فيه لأن الآخرين لا يقبلون أن يعمل عقلك، العقل عندما يعمل يتمرد، وينحصر، آخر مقال قرأته لم أقرأ تلك السلاسة التي كانت تتميز بها عبارتك، ربما أنت لم تلاحظ ذلك، شعرت بك تلقي خطاباً، أريد منك كتابة تنبض بالحياة، وأرى روحها تتقافز كعصفور في غابة، وأن تقيم بينك وبين الناس حالة من الهمس، يوم قرأت مجموعتك القصصية الأولى، تفاءلت بولادة كاتب قصة مميز، ليتك تابعت الكتابة.»

أخبرته ليس بإمكاني الانتقال إلى دمشق.

قلت: «أين سأسكن؟ في أكواخ «عش الورور»، أو«مزة ٨٦، «أو على أطراف دمشق كالنازحين؟»

«إذا تسلم صحيفة مدينتكم، إدارتها شاغرة، على الأقل تمضي فيها وقتك قبل أن يقتلك الفراغ.»

لم أوافقه. قال «اعتبرها محطة انتظار، وسأنصحك بألا تنتظر موقفاً يخدمك من أحد، أنت الآن في الفراغ، من يكون في الفراغ، يبقى في الفراغ ، إن لم تمتد إليه يد لتمسك به، هي اليوم فرصتك.»

«أفكر.»

يوم سألت أمي إن كنت أقبل بتسلم رئاسة تحرير صحيفة مدينتنا...

راحت تتلمس وجهي بـأصابعها النحيلة، وتوجهت عيناها اللتان فقدتا ضياءهما إلى السماء، «ليكن الله معك في كل خطوة.» كان مقالي الأول في الصحيفة بعنوان «الأزهار تذبل، ولكن لا تموت.»

بعضهم قرأ المقال تحدياً لماجد. وفار وكر الدبابير .

قال فؤاد: «لن يتركوك بحالك، ستواجه كثيراً من التحدي، السلاح المستعمل اليوم بالقتل، هو سلاح التقارير.»

في الواقع... كنت أقصد من المقال عكس ما ذهبوا إليه .

فروح الأدب التي تسكنني، استيقظت، وأردت القول إنها لم تذبل، كان همي أن أمسك بأقلامي واكتب، وأكتب، روح الأدب

تدخل في دهاليز اشتياقي للكتابة، كتبت روايتي الأولى بعنوان «دهاليز ذاكرة.»

كانت أحداث الرواية تحمل روح هجرة رجل ريفي إلى المدينة، لا هو نجح في مغادرة روحه القروية، ولا أخذته الحياة الجديدة ، فوجد نفسه يعيش غربة حادة، ينجرف فيه الشوق إلى القرية، ووجع الحياة يبقيه صبورا على غربة الحاضر... فظل بمحاذاة الماضي والحاضر، يتساءل قلقاً كيف له أن يكون خارج غربته؟

- ١٣ -

بعد تقديم مداخلتي في اللجنة السياسية لمؤتمر السياسات الاجتماعية.

تقدمت مني سيدة على مشارف الخمسين من عمرها، سمراء متوسطة الطول، في عينيها حزن وشرود، وسألتني: «أتذكرني؟»

في الواقع... كانت ملامح وجهها ليست غريبة عني...

رحت أدقق في ذاكرتي عن تلك الملامح التي لا تبدو لي غريبة، لكنني فشلت في تذكرها، قلت: ربما رأيتك على التلفاز، هل أنت إعلامية؟

- «يبدو أن ذاكرتك شاخت... كيف جويل؟»

- «من جويل؟»

- «حتى جويل نسيتها؟»

سأسألك... لماذا لم تسمِّ أياً من بطلات رواياتك «جويل؟»

أهو هروب من ذاكرتك أم نسيان أم أن الأمر كما قالت جويل لك يوماً «أنت أشبه بمن يلوّح للنوارس بمنديل؟»

قلت «آ... عرفتك...عفراء.»

عانقتني بحرارة... «نعم ... أنا عفراء.»

- «تعال نشرب القهوة ونتحدث، اشتقت إليك كثيراً.»

كان سؤالي الأول: «ماذا عن خالد؟»

اندلق فنجان قهوتها على الطاولة بحركة لا إرادية.

- «عفراء... ما بك؟»

راح البكاء يبتلع صوتها، قالت:

- «عذراً... لا أطيق فتح الذاكرة على خالد، سنحدد موعداً للقائنا بعد انتهاء المؤتمر، لديّ كلام كثير سأقوله لك.»

تبادلنا أرقام الهواتف، وتبادلنا التقاط الصور، وأنا أودعها قالت: «الإنسان في النهاية ذاكرة...»

«أشعر اليوم أنني لست أكثر من ذاكرة، يتماوج فيها الماضي، فتطلُّ وجوه كثيرة، أبي وأمي وخالد، رحيل خالد كسر ظهري، موت الرجل باكراً، يترك عبئاً ثقيلاً وقاسياً، ثلاثة أولاد وفتاة، حمل كبير. ما معني أن يكون الإنسان حمالاً للشقاء والتعب، وحده الإنسان يحمل عبء الأولاد حتى الموت... ووحده الإنسان يبتكر وسائل شيخوخته وعذاباته.»

* * *

اتصلت عفراء، «أنا قادمة صباحاً إلى اللاذقية، هل تستقبلني؟»

في كراج البولمان باللاذقية، قالت عفراء: «لدي رغبة في تناول القهوة على الشاطئ الجنوبي.»

« نذهب.»

كان خالد مملوءاً بعشق هذه المدينة، لا أعرف لماذا لا يعشقها أبناؤه، علاقة الأبناء اليوم بالمكان ليست كعلاقتنا نحن، أهي مقدمة لموت الجغرافيا، هذا السؤال سألته لرجل على علاقة بالتاريخ، قال لي:

«المخطط الصهيوني أن تموت علاقتنا بالجغرافيا فنتخلى عن فلسطين.»

بدا لي الكلام كبيراً، المشكلة عندنا في المثقف يقول كلاماً كبيراً، ولا يعمل به...

لا أذكر أنني جلست في مقهى بحري في تلك المنطقة التي يسمونها اليوم «الراقية» من قبل... بطبعي لا أحب الجلوس في المقاهي، وبخاصة في تلك المنطقة التي تحولت في السنوات الأخيرة إلى جزر سكنية خاصة بالأغنياء الجدد.

قلت: «فرصة لأشاهد تلك المنطقة، فأنا لم أزرها من قبل.»

ضحكت... سألتها: «لماذا تضحكين؟»

قالت: «خشى أن تكون كرجل التاريخ الذي سألته عن موت الجغرافيا...»

- «لا، أنا رجل التاريخ والجغرافيا، ورأسي يظل في العراء.»

- «أقرأ ذلك في مقالاتك، أحياناً أخالك خارج الواقع.»

- «قولي، في مواجهة الواقع الجديد. دعينا الآن من ذلك.»

* * *

رحنا نتأمل الشاطئ، كان ضياء النهار على الماء شفيفاً، وتتبعثر حركة الزوارق الصغيرة على امتداد الشاطئ، وكانت النوارس تزقو، وهي تعلو وتنخفض قريبة من الماء، وثمة بحار يغني أغنية «سالم» تذكرت جويل، فتح وجه جويل حزني وارتسم على وجهي وفي عيني، قالت عفراء: «أغنية جميلة.»

لم أشأ القول إن جويل غنتها لي يوماً. قلت: «الشاطئ هنا جميل، أشعر أنني في جغرافيا لا أعرفها، هل يشعر الإنسان بالغربة في جغرافيا داخل بلده؟»

«أنا أشعر بالغربة الآن.»

قالت عفراء وهي تتأمل المكان:

- «يا ألله...!! هذا أجمل شاطئ في الدنيا، لماذا لا تحوله الدولة إلى مدينة سياحية، وليس مدينة لأكابر البلد.»

- «أنت تمارسين النقد الآن... هل تمارسينه أيضاً في حياتك العامة؟»

«نعم، تمنيت لو أنني قادرة على تغيير جلدي وروحي... كان أبي يقول، مشكلتنا مزمنة لأننا نحتفظ بجلودنا وأرواحنا، فنبدو غرباء. في الوطن.»

توقفنا أمام مقهى بحري مطل على واجهة بحرية واسعة تطل على خليج واسع يفتح الرؤية... تبدو مدينة جبلة من المكان كرأس صخرة ناتئة في البحر، وعلى واجهة المكان لوحة كبيرة مضاءة «ياسمين دمشقي».

قالت عفراء: «اشتقت إلى جبلة، منذ زمن طويل لم أدخلها، أذكرها مدينة بسيطة تنفرش على امتداد شاطئ صخري، كيف حالها الآن؟»

قلت: «امتلأ الشاطئ بالمقاهي والفيلات الأنيقة.»

«بالتأكيد ... ليست للفقراء».

«كانوا في زمن ما... فقراء.»

نزلنا عدة درجات نحو المقهى المتشاطئ مع الماء فوق قاعدة صخرية، ودخلنا صالة بدت قسمين يفصل بينهما ستار من قصب الخيزران الأنيق، أخبرنا النادل أن القسم الجنوبي من المقهى مخصص للعائلات.

دخلت عفراء القسم الآخر، وقالت: «سأخترق التعليمات.»

قال النادل: «ولكن مكانكما هنا في قسم العائلات.»

تجاهلت ملاحظته وجلست حول طاولة تطل على الرأس البحري من جهة الشمال، ومرفأ صغير لزوارق صيد، وعلى مقربة من الزوارق الصغيرة «يخت» فاخر يبدو بين الزوارق كبناء شديد الفخامة... ولفت انتباه عفراء هذا التناقض، ولكنها وصف ذلك بالواقع القائم .

حدثتني عن ابنتها «شيماء» المعلمة في إحدى قرى الرقة وأنها تتعرض هناك للأذى، والشتائم لأنها غير محجبة، ذهبت إلى هناك، والتقيت الجهات المسؤولة سياسياً وتربوياً وأمنياً، كان جواب الجميع: لا نستطيع أن نفعل شيئاً، فلتلبس الحجاب... قلت: وهل تريدونها أن تنافق في علاقتها مع الله، هي غير مقتنعة.

مسؤول الفرقة الحزبية، قال: زوجتي تلبس الحجاب، وهي ليست أفضل منها.

قابلت وزير التربية، وطلبت نقلها كابنة شهيد، رد عليّ: «لأنها ابنة شهيد مطالبة بالتعليم هناك لعلها تستطيع تطوير المجتمع.» قلت للوزير: «أنت تسخر مني أم تسخر من نفسك؟»

وتنهدت... «رأسي يتفجر، ما الذي يفرح في حياتنا؟»

وطلبت كأسي بيرة، قال شرب الكحول هنا ممنوع يا سيدتي.

«لماذا؟»

رفع النادل كتفيه باستغراب: اسألي صاحب المقهى.

«من صاحب المحل؟»

قالت: «أحمد العموري»

قالت عفراء: «احضر لنا قهوة مُرَّة.»

وسألتني: «هل عرفت من أحمد العموري؟»

قلت: لا...

هزت رأسها: «ابن خالتي، شقيق صديقك فؤاد ، هل ما زال فؤاد صديقك؟»

« نعم ، هو لم يحدثني عن أخيه منذ زمن، هما مختلفان.»

«لا قرابة بين فقير وغني، أحمد صاحب منشآت سياحية في دمشق وحلب وطرطوس، وهنا... ولا تسأل كيف حصل ذلك.»

وقفت قبالتي، وألقت كفيها على كتفي، اعتقدت أنها ستقبلني، لكنها لم تفعل، ظلت تتأملني، سألتها: «ما بك؟»

قالت: «سوف تستغرب ما سأقوله لك.»

- «ماذا؟»

تنهدت عفراء... «حكاية محزنة وموجعة، ذات يوم أخبرني خالد أنه نقل من موقع عمله في الجبهة إلى عمل هامشي، وكأنه خرج من الجيش تماماً، كان حزيناً ومتألماً، خطر لي فوراً أحمد العموري، كان في قناعتي أنه وراء ما حصل لخالد، لأنه كان يريدني وفضلت خالداً عليه، وحدثتك من قبل عن وقوفه وراء اعتقال أبي بتهمة الشيوعية، لم أقل لخالد أنني سأزور أحمد، فهو ابن خالتي، وعليه أن يكون حريصاً على خالد من أجلي على الأقل، وخالد بمعرفة كل قادته أنه ضابط مدرعات متميز، والأول على دفعته في الكلية، وفي كل الدورات العسكرية الأخرى، وكان أصيب في مواجهة مع العدو الإسرائيلي، وتمت معالجته في موسكو.

اتجهت إلى أحمد في مكتبه وأخبرته أنني جئته من أجل خالد، لم أقل له أنت وراء ما حصل له، لكنني رجوته من أجل قرابتنا الاهتمام به والعمل على إعادته إلى عمله «خالد كالسمكة إن خرجت من الماء تموت، خالد لا يستطيع مغادرة خنادق القتال.»

ثم توقفت عن الكلام، وراحت تمسح دموعها.

سألتها: وماذا حصل؟.

تطلعت في عيني، وقالت: «هذه الحكاية لا يعرفها إلا أنا وأنت والله سبحانه وتعالى، رحل خالد وهو لا يعرفها، وهذا أمر يوجعني كلما تذكرتها...»

- «ماذا حدث؟».

- «ساومني أحمد على جسدي، مقابل مساعدة خالد، فانفجرت في وجهه.»

وغرقت بالبكاء من جديد.

- ١٤ -

وصولي إلى مجلس الشعب كان مفاجأة، كما قال فؤاد.

وجاء صوت عفراء: «يبدو أن ربيع أزهار النرجس جاء.»

كنت مدفوعاً بأحاسيس كبيرة وكثيرة لأكون بمستوى أحلام تسكنني، كنت أتساءل دوماً... لماذا لا تكون قضايا الفقراء بوصلة الدولة، يوم واجه الوطن عصابات القتلة، حمل الفقراء السلاح.

قال فؤاد وأنا أتهيأ للسفر لحضور الجلسة الأولى:

«لا تحمل السّلم بالعرض، رأيت ما حصل معك يوم كنت في مهمة سياسية.»

قلت: «أنا أحمل قضية.»

ضحك: «الجنون فنون كما يقولون، وأسوأ أنواع الجنون، الجنون السياسي.»

قلت: «وأسوأ النصائح الدعوة إلى الهزيمة والاستسلام.»

كتبت على أوراق صغيرة وأنا في طريقي إلى دمشق عناوين مداخلتي الأولى.

أذكر أن الرفيق عامر كان ينصحني قبل أن أناقش أو أحاور أو أتقدم بمداخلة، بفهم الموضوع، وقول ما أود قوله شفهياً لأن ذلك سيكون أكثر تأثيراً في المستمع.

نصائح عامر شكّلت كثيراً من قناعاتي في الثقافة والحوار، وعلى الرغم من ذلك، لم أقل هذا أمام الآخرين، لأن كثيرين سوف يصوغون حكايات وانتماءات وخلفيات باختصار... وتكون ورقة مضافة إلى أوراقهم الصفراء.

لم يكن في توقعي يوماً أنني سأقف تحت قبة البرلمان عضواً ومتحدثاً.

حقيقة... هو القدر كما قلت لعفراء يوم سألتني، «كيف وصلت؟»

سؤال عفراء وإن بدا غريباً، ولكنه السؤال الدارج في هذه الأيام ، فهو يحمل الاتهام أحياناً والاستغراب أحياناً... وحده أبي كان متفائلاً لي قبل رحيله عندما يحدثني عن المستقبل دون أن يحدد حدود هذا التفاؤل، كان يزرعني بالأمل.

تحت قبة المجلس لأداء القسم في الجلسة الأولى...

طوال الطريق، ثمة سؤال يستيقظ في رأسي «هل سأتمكن من عرض ما في أفكاري تحت هذه القبة التي شهدت على مدى عقود آلاف الأسئلة والحوارات، والوجوه والنقاش الحاد، أم أنني سأحتاج إلى ضوء أخضر كما يقول بعضهم؟»

أحد الأعضاء القدامى قال:

«كل شيء هنا معد من قبل، والقطار الذي يخرج على السكة يسقط؟»

سألت: «وماذا عن الضوء الأخضر والأحمر؟»

قال: «الحكاية كلها... لك حق الكلام وللحكومة حق التجاهل، وبمرور الوقت تموت الأفكار وتتلاشى أو تتحول في رأسك إلى ديناميت جاهز للانفجار في أي لحظة، فتصرخ، فيضج صراخك في القاعة الواسعة، فينطلق ضحك من حولك تتشارك فيه الحكومة مع الأعضاء، وينتهي الأمر، هل فهمتها؟»

قالت عفراء على الهاتف بعد أن شرحت لها ما أفكر به: نحتاج إلى بناء مشروع كبير لبناء الإنسان وطنياً... بناء الإنسان، بنينا

المعامل والمصانع والمؤسسات الصحية والتعليمية، ولم نقم ببناء الإنسان الأهم... مخفر الشرطة في أي حارة أو قرية يهتم ببقاء الأمور هادئة في الحي دون البحث إن كان هذا الهدوء يخبئ أمراً قد يعصف به يوماً، علينا البحث دائماً في العمق، سواء أكانت الأجواء هادئة أو مشتعلة.

سألتها: «من أين تأتين بتلك التشبيهات؟»

«من جنوني، قل عني مجنونة،أو معارضة.»

* * *

راح التلفاز ينقل وقائع جلسات المجلس على الهواء مباشرة، وانبرى الخطباء يقرؤون ما كتبوه على قصاصات الورق. ارتجلت بعض المقاطع التي تتماهى فيها السياسة باللغة الأدبية.

أخبرتني عفراء أنها تابعتني لي التلفاز وأنني كنت موفقاً.

ثم قالت: «هل تعرف ماذا خطر في بالي وأنت ترتجل؟»

- «ماذا؟!»

- «حالة من القلق.»

- «لماذا؟!»

- «بت أخشى عليك من علي بابا والأربعين فاسداً، انتبه إلى نفسك.»

رئيس المجلس الدكتور«محمود»، كان هو الآخر معجباً بما قلته، وكنت أنا معجباً بحديثه الأول تحت قبة المجلس، المملوء عشقاً للوطن...

بمرور الزمن تتعمقت بيننا صداقة، وأخذتا نتناقش بما يجري في المجلس من حوارات ومداخلات.

كان بينه وبين الحكومة جفوة غير معلنة، يرى أن مجيء الحكومة إلى المجلس ليس أكثر من حالة مظهرية، قال بلغة المثقف «لأن تلك الأفكار التي ترفرف كالعصافير تحت القبة يتم اصطيادها ببنادق الصمت والتجاهل من قبل الحكومة.» وكان يشعر بالألم من بعض الأعضاء الذين يدخلون إلى قاعة المجلس في بداية الجلسة وسرعان ما يخرجون لشرب الشاي والقهوة، أو المرور على مكاتب الوزراء لمتابعة قضايا في معظمها «خاصة».

وأعجبني منه انحيازه للفقراء على الرغم من أنه ينتمي إلى وسط غني، وهذا يذكرني بما قاله يوما وزير الخارجية البريطاني

الذي ينتمي لعائلة عمالية لوزير خارجية الاتحاد السوفييتي الذي ينتمي لعائلة برجوازية قبل الثورة... «كل منا، يا صديقي، قد خان طبقته»... هذا ما خطر في بالي وأنا أستمع إلى ردود وزير المالية المنحدر من عائلة فلاحية فقيرة.

*   *   *

كان شباط ينثر ثلوجه على جبال القلمون...

قفز إلى ذاكرتي ذاك الصباح الشتوي في مدينة حلب، كانت المدينة مغطاة بالثلج... أسطح المباني والساحات والطرقات، ركضت مع جويل في دروب الحديقة العامة... كنا كعصافير الدوري التي تتقافز على عتبات النوافذ، بدت أشجار الحديقة العامة كأهرامات من الثلج، وتجمدت برك المياه في الحديقة، وغطى الثلج المقاعد، والجزر الخضراء. التصقت بي جويل أمام تمثال أبي فراس الحمداني... من تقاليد جويل الثابتة التوقف أمام تمثال أبي فراس كلما دخلنا الحديقة، وراحت تزيح الثلج عن قبضة سيفه... أمسكت بيدها وسحبتها إلى الخلف:

«ابتعدي عن الثلج، قد تمرضين.»

ألقت رأسها على صدري، كانت أصابعها باردة ووجهها بارداً وشفتاها ترتعشان: «ألا ترى أبا فراس يرتجف تحت الثلج؟»

«أنت تمزحين؟»

«لا والله، أراه يرتجف.»

ثم وقفت قبالتي، صار بخار أنفاسها يتشابك مع بخار أنفاسي، بدا المشهد مثيراً، همست... «يخطر في بالي أن أقبلك» تلفت حولي، كان الحارس على بعد خطوات، وثمة شاب وفتاة يقتربان منا، ضحكت... «اشتاق لتقبيلك.» ابتعدت عنها «أنت مجنونة.» أمسكت بيدي، وشدتني نحوها:

«كم أحلم ببلاد لا يفارق جبالها الثلج... ما رأيك أن نذهب إلى خالتي ميلدا في اليونان ونعيش بعيداً من هنا، إلى أي مكان... المهم أن نكون معاً.»

تتحرك أصابعها في شعري :

«أخاف أن نفترق يوماً، عندها لن أستطيع تحمل الصدمة.»

«قلت الناس حولنا.»

«معك، لا أرى أحداً.»

راحت جويل تتقافز في مكانها كإوزة ... ثم أمسكت بيدي:

- «تعال نركض.»

- «ليس لدي رغبة.»

ظلت ترقص إلى أن تعبت ونام رأسها على صدري...

- «هل تحبني.»

- «نعم .»

- «وستكون لي؟»

- «نعم.»

- «أقسم .»

- «أقسم.»

أمسكت جويل بكتلة ثلج وغمرت وجهي.

اتصال عفراء قطع حبل ذاكرتي، قالت: «هل نشرب القهوة معاً؟»

- «لا... أنا في الطريق إلى دمشق، وسأغادر اليوم إلى بروكسل.»

- «الأخبار تقول إن الثلج يغمر الطرقات، وربما ينقطع الطريق.»

- «أنا على مسافة قريبة من دمشق.»

- «أتمنى أن أشرب القهوة معك.»

- « إلى أن أعود.»

«سأتصل مع مسعود، وأطلب منه ملاقاتك إلى بروكسل للتعرف عليك، عندما تصل بروكسل أخبرني بمكان إقامتك.»

* * *

كانت شمس بروكسل شديدة السطوع على واجهة بناء الاتحاد الأوروبي.

اتصلت مع عفراء في اليوم الثاني، وأخبرتها بمكان إقامتي.

سألتني: «أقرأ في صوتك انزعاجاً، هل أنت منزعج من شيء، بت أعرف مزاجك من صوتك...»

قلت: «بعض أعضاء الوفود العربية في قاعة المؤتمر رأيتهم يصافحون المندوب الإسرائيلي، وبعضهم عانقه، وآخرون حادثوه، ومازحوه، وبعضهم تناول الطعام على طاولته داخل المبنى الأوروبي المتوسطي.»

- «هل فاجأك ذلك؟»

نعم، قلت لبرلماني تونسي جلس على طاولة الغداء مع المندوب الصهيوني يمازحه: «هل كان غداؤك شهياً مع قاتل أطفال غزة؟»

ردّ باستخفاف: فلسطين... مشكلتكم وحدكم كسوريين.

- «وستظل مشكلتنا.»

- «ستدفعون ثمن ذلك من لقمة خبزكم.»

- «وأنتم ستدفعون ثمنها من كرامتكم.»

زارني مسعود ابن عفراء...

بدا هادئاً، وميالاً للصمت، بين الحين والحين يلمس ذقنه ذات الشعر القصير، وشاربيه الحليقين، تحدثت معه في قضايا فكرية وثقافية وسياسية، كان يهمني أن أعرف آراءه، تجنب الدخول في حوار مباشر، لهذا سألته سؤالاً مباشراً: «كيف ترى الحل لأزماتنا كوطن، وأمة؟»

قال: « الإسلام هو الحل، يحل مسألة الحدود والوجود.»

ثم فتح حقيبة جلدية يحملها وأخرج منها كتاباً وقال:

«في فكر شيخ الإسلام الحل، سأقدمه لك هدية.»

قلت: ولماذا شيخ الإسلام وهو يكفّر غالبية المسلمين ويدعو إلى قتلهم... أمك تتبع لطائفة إسلامية يدعو ابن تيمية لذبحها وسبي أعراضها.

التزم الصمت، تحرشت بصمته: «هل من الجائز شرعاً ذبح أمك أو سبيها، ألم تشاهدها تصلي، وتنطق بالشهادة؟»

«نعم.»

-١٥-

يقول لي عبدو زميلي في المجلس: عندما قرأت روايتك الأخيرة «الجفون» فكرت بدعوتك لزيارتي في حلب وبالمناسبة نتحدث في الرواية في فرع اتحاد الكتاب أو اختر موضوعاً في أي مجال تحب... في الثقافة أو في السياسة أو في الحب... المهم أن تأتي إليّ، وسأصطحبك بجولة في المدينة تشعل ذاكرتك كما جاء في «الجفون».

كان نيسان في أوله يوم سافرت إلى حلب مع صديقي زهير...

فأنا بطبعي لا أحب السفر وحيداً، وأعشق روح الدعابة عند زهير، كان لا يعرف ما الذي تعنيه لي حلب، ورد كثير من مشاعري نحو تلك المدينة في رواية الجفون، وحكيت فيها عن جويل باسم آخر، لكن زهير اعتقد أن أحداث الرواية متخيلة

كما يفعل الكتاب عادة، كنت اختلف في أسلوب كتابتي وسردي الروائي عن الآخرين، فأنا أكتب في كل رواية فصلاً من حياتي، بطريقة يمتزج فيها التخييل بالواقع.

هل هي المصادفة ...

أم أن الصديق عبدو تعمد ذلك ...

مشى بنا إلى مقهى يتوسط الزاوية الشرقية من ساحة سعد الله الجابري...

أذكر... في هذا المقهى بالذات جلست مع جويل وعفراء.

لا أذكر اسم المقهى في الماضي، هو تغير اليوم وصار باسم آخر عصري، وكتب الاسم الجديد «ذكريات» في الواجهة على لوحة أنيقة باللغتين اللاتينية والعربية، حتى الطاولات والكراسي وألوان الجدران وكؤوس الشاي وفناجين القهوة... كلها تغيرت.

سألني عبدو: «هل أعجبك المقهى؟»

ضحكت... «نعم.» ولكنني لم أخبره أن المقهى أشعل ذاكرتي، لكنه قال: «قرأت في روايتك عن مقهى، فاعتقدت إنه المقهى ذاته، هل أنا محق في ظني؟»

قلت له: «عذرا لدي اتصال.»

حدثت عفراء بما تفيض به ذاكرتي عن لقائنا في هذا المقهى وبحضور جويل، وحدثتها عن المدينة.

بكت عفراء وأنا أحدثها عن حلب، سألتها: «لماذا تبكين؟»

قالت: «لا أدري... لا أدري، يبدو أنني بت امرأة ذاكرة، كل شيء يشعل ذاكرتي ويبكيني.»

* * *

قال الزميل عبدو: «اقترب موعد المحاضرة، سألفت انتباهك إلى أن الحلبيين يحبون العبارات الرومانسية الموشاة بعشق الحياة كما يحبون الموشحات.»

قلت: «في حلب تتلون رومانسيتي بالحزن.»

في صالة الحضور، حضر وجه جويل بين الحضور.

بعد إلقاء المحاضرة سألني أحد الحضور: «لماذا كنت حزيناً وأنت تتحدث؟»

لم أقل له إن جويل استيقظت في روحي. قلت بطريقة أخرى: «استيقظت حلب في روحي وأنا أتحدث.»

«هل استيقظ في ذاكرتك وجه امرأة.»

أربكني السؤال، وحرت بما أجيب، قال له زميلي عبدو ممازحاً:

«وجوه كثيرة، وليس وجهاً واحداً.»

شعرت بكلام عبدو يتهمني بخيانة جويل، قلت للرجل «هي امرأة واحدة.»

قال... «قرأتها في صوتك وحديثك وأنت تتكلم.»

مساء دخلنا مطعماً في حارة «الجديدة» القديمة، كانت ملاصقة للحارة التي كنت أسكنها، راح الماضي بعبقه يمشي في أزقتها، وأتنفس رائحة جدرانها، ونوافذها، وأزقتها... مئات المرات مشيت في تلك الأزقة مع جويل، كنا نهرب من الشوارع الفسيحة إلى تلك الأزقة، الحي اليوم مختلف تماماً، بات يجمع بين القديم والجديد ويزدحم بالمطاعم التي يرتادها العاشقون لعبق التاريخ الممتزج بالحداثة.

وأنا أغادر حلب أوقفت سيارتي في مدخلها الغربي، وتطلعت نحو الشرق أتأمل المدينة، عادت ذاكرتي إلى الاستيقاظ، تبدو المدينة كصورة على ورق أبيض، وفي أفقها يرتسم وجه جويل،

وهي تمسك بقبضة تمثال أبي فراس الحمداني كما كانت تحب أن تفعل كلما دخلنا الحديقة العامة.

سألني صديقي زهير الذي كان يصحبني في تلك الرحلة: «ما بك؟»

قلت: «لم أزر الحديقة العامة... أفكر بالعودة لزيارتها.»

ضحك: «من كل عقلك تفكر بالعودة ... أم أنك تمزح؟»

زهير لا يعلم ما تعنيه تلك الحديقة لي ولا يعلم ما تعنيه لأي عاشق حلبي، كل عاشق في حلب، الحديقة شاهد على حبه «...أخبرته أنني مملوء بالاشتياق إلى تمثال أبي فراس الحمداني.»

- «ولماذا تمثال أبي فراس؟»

لم أرغب بالقول أنا وجويل كنا نعشق الوقوف قبالته وننسج أحلامنا أمامه، أذكر... في أحد المرات، وهي تتلمس قبضة سيفه، قالت: «أقرؤك في ملامحه.»

ضحكت... كنت لا أعرف من أين تحضر جويل تلك العبارات الكبيرة... راحت تقترب من التمثال أكثر وتتلمس رداءه، وقالت:

«هل تصدق أنني أخاله أحياناً إنساناً من لحم ودم.»

ويأتينا صوت الحارس... «ابتعدا»، نتجاهل تحذير الحارس، يقترب غاضباً، يشدني من كمي:

- «يا رجل من ساعة وأنا أناديكما... ابتعدا.»

يشدني زهير من كمي،«تحرك، يا رجل، تأخرنا.»

-١٦-

- «دعنا نلتقي، أريد أن تحدثني عن زيارتك إلى حلب.»

- «أنا في الهافانا... انتظرك.»

- «قادمة.»

رحت أتأمل المقهى، خطر لي سؤال: لماذا يرتبط اسم الهافانا بالمثقفين السوريين، ألم يعد الهافانا كما كان، أم أن الهافانا تغير، كما يتغير اليوم كل شيء.

في الواقع...

لم يعد مقهى الهافانا يعج بالكتاب، والمثقفين... ولم يعد حوارهم يصخب فيه وهم حول طاولات مغطاة بالصحف وفناجين القهوة وصحون السجائر...

أتذكر أول مرة جئت فيها دمشق، لم أكن أتجاوز الخامسة عشرة، وكنت برفقة قريب لي يدعى أبو سامي، يطلقون عليه في مدينتنا لقب:

عاشق الشام لكثرة ما يتحدث عنها بافتتان.

طوال الطريق بين اللاذقية ودمشق في باص الـ «هوب هوب» ظل العم أبو سامي يحدثني عن دمشق، بردى، ساحة المرجة، ساحة الحجاز، سوق الحميدية، المسجد الأموي، مقام السيدة زينب، شارع بيروت، وعشقه الكبير، لمقهى الهافانا... قال: «في الهافانا تتوالد حكايات الوطن النقية.»

بالتأكيد... لم أكن أفهم ما يعنيه.

مشيت إلى جانبه في ساحة المرجة، ورحت أتأمل العمود البازلتي الناهض في وسط الساحة، بدا لي مهيباً وعجيباً، كل ما يحيط بساحة المرجة كان مدهشاً ليافع مثلي لم يغادر مدينته البحرية الصغيرة من قبل، يومذاك...اعتقدت أن ساحة المرجة تشكل قلب العالم، قلت: «يا لروعة هذا العمود!»

اكتشفت عدم ارتياحه بقوله: «ليس في العمود روح دمشقية.»

مرة أخرى لم أفهم ما رمى إليه... ولم أسأله، ولكنني فيما بعد عرفت أنه يعود إلى زمن الاحتلال العثماني .

في الطريق إلى مقهى الهافانا، أفهمني العم أبوسامي أنه سيلتقي رفاقاً له.

في المقهى، رحب به النادل، بدا وكأنه يعرفه، ونهض رجال من وراء طاولة لاستقباله، أخذوه بالأحضان، وراحوا يتحدثون عن الوطن والأمة والعروبة والمستقبل والحرية... كلام سياسي ما زالت تفاصيله في رأسي.

وكان يثير دهشتي امتلاء الصحون بأعقاب السجائر والرماد، وتبديل كؤوس الشاي والقهوة الفارغة بكؤوس مملوءة.

عندما همّ الرجال بمغادرة الهافانا، رأيت يد أبي سامي تمتد بحركة سريعة إلى تحت معطف رجل أشيب، في وجهه كثير المهابة، ويضع له مغلفاً.

خارج المقهى سألت: أبا سام... ماذا أعطيت الرجل؟.

لم يرد، وظل صامتاً.

عقود مرت على تلك الحادثة وهي في ذاكرتي.

أذكر كلمات العم أبي سامي... «إن مالت دمشق مال العرب وانكسروا.»

كان كلامه يومذك أكبر من فهمي.

ها أنذا كبرت، يا أبا سامي، وعرفت ما كنت تعنيه.

تأخذني الدهشة كلما تذكرت كلامك... ياه!!، أكنت تقرأ الواقع العربي الراهن؟

كتبت على ورقة أمامي بخط عريض: «إنه زمن أوجاع أبي سامي.»

عندما وصلت عفراء إلى المقهى...

كان التلفاز يقدم نشرة أخبار الظهيرة.

قالت: «دعنا من نشرات الأخبار، رأسي يوجعني من الأخبار...»

كل نشرات الأخبار عن الحكومة، لماذا ينشغل الإعلام بهم وبجولاتهم، البارحة كنت في الحسكة، ورأيت الناس كيف يغادرون قراهم بسبب الجفاف، يذهبون للسكن في أطراف المدن الكبيرة، ليعملوا في أعمال هامشية لا تفيد الوطن، وبعضهم ينحرف بسبب الحاجة إلى لقمة العيش، أين القراءة السياسية لهذا الواقع؟

الفكر السلفي التكفيري يجتاحهم، يجتاح البسطاء في الأرياف، والقوى العلمانية نائمة، الفكر التكفيري سرق عقل ولدي، وهو في حضني، وأنا الأم العلمانية، هل أنا المسؤولة، أم هذا المسؤول السياسي والثقافي الحالم بوجاهة أكبر ومال أكثر؟

ضحكت... «عفراء... تتحدثين اليوم في المسألة الثقافية؟»

«لأنني بت أدرك أن الحرب التي تواجهنا ثقافية...»

«ماذا عن مسعود؟»

«مسعود اتصل مع أخيه محمد وقال له: قل لهذه المرأة «أمك» أن تخشى الله وتلبس الحجاب.»

تصوّر... يصفني بالمرأة، ولا يقول أمي، اتصلت معه هاتفياً، لأن الأمر بدا لي خطيراً، أغلق الهاتف في وجهي، كتبت له رسالة على الهاتف:

- «مسعود...أنا أمك.»

ردّ عليّ... «المرأة الكافرة ليس لها حق الأمومة.» أرأيت لماذا تشغلني القضية الثقافية، والتحركات المتطرفة، ونحن نيام؟»

وأحنت رأسها على الطاولة، اندلق فنجان قهوتها، رفعت رأسها ، وقالت: «أنا آسفة... أشعر بدوخة، خذني إلى طبيب.»

مشينا إلى عيادة طبيب قريب من الهافانا، قال الطبيب: «لديك ارتفاع ضغط، الحمد لله أنك جئت، عليك الذهاب إلى المشفى.»

رفضت: «لا... أريد الموت في بيتي.»

قال الطبيب: «أنت فقط تحتاجين إلى بعض الراحة هنا.»

«لا.»

في الطريق إلى بيتها انفجرت عفراء بالبكاء.سألتها: «هل أنت خائفة من الموت؟»

«لا... أنا انفجر، هل ثمة أمر أخطر من تكفير ولد لأمه؟

ربما يقرر مستقبلاً ذبحي، وأخشى أن يدفع بأحد أخوته لفعل ذلك.»

- «عفراء، أنت تهذين، ابعدي هذا التفكير من رأسك، هو ولدك.»

«أنا مهزومة.»

- ١٧ -

قال صديقي الجزائري: «سورية ستكون خارج هياج الربيع العربي.»

كنا في الدوحة بقطر، وكانت محطة الجزيرة تنقل ما يجري من ميدان التحرير بمصر مباشرة، قلت: «ولماذا في رأيك لن يصل الهياج إليها؟»

قال: «لأنها صاحبة قضية قومية... فلسطين.»

ضحكت، سألني «لماذا تضحك، هل ثمة رأي آخر لديك؟»

«نعم...لأنها صاحبة قضية، ستتمركز العاصفة على دمشق.»

كان ذلك الحوار في التاسع من شهر آذار...

في الخامس عشر من آذار لعام ٢٠١١...

كانت محطة الجزيرة، تعلن اشتعال الأحداث من قلب مدينة درعا...

وثمة عشرات المحطات الفضائية الأخرى كالجزيرة بخطاب واحد يبث السموم الطائفية والمذهبية والسياسية والتحريض السياسي والمذهبي لإسقاط الدولة السورية.

راح المتظاهرون في درعا يهاجمون مخافر الشرطة، وقصور العدل، ودوائر الدولة ومؤسساتها، وفروع الأمن، و المركز الإذاعي والتلفزيوني ... وغطت نيران الحرائق سماء المدينة.

* * *

كان المساء في أوله عندما ظل هاتفي يرن ويرن، وأنا متردِّد في الرد، كان تطور الأحداث يقلقني ويطرح في رأسي مئات الأسئلة والأفكار، وحتى الشتائم على هؤلاء الذين كانوا يشككون بأفكارنا وآرائنا في الحوارات السياسية الرسمية وغير الرسمية، وبما نكتبه من قلق في الصحف.

ظل الهاتف يرن ...

وأخيراً، فتحت خط الهاتف، جاءني صوت عفراء مهتاجاً وغاضباً:

- «مسعود.»

- «ما به ؟»

- «على محطة الجزيرة في برنامج الاتجاه المعاكس... يحرض بخطاب طائفي ومذهبي الناس في الوطن لمواجهة الدولة السورية.»

«وماذا أفعل لك وله؟» قلت بعصبية.

- «أحببت أن أخبرك ، هل أزعجتك؟»

اعتذرت... «أنا أسف، أنا مصدوم بما يجري.»

قالت: «قلبي سيتوقف، إنه ابني!»

«تجاهلي الأمر، ابن نوح كان كافراً.»

«لا أستطيع، حتى ابنتي شيماء يتهددها زوجها إن جاءت لزيارتي سيقتلها... قلت لولدي محمد اتصل د. مسعود وأخبره بأمر شيماء، قل له: «زوج أختك يتهددها بالقتل، وكونك صاحب الرأي في زواجها منه، تكلم معه.»

- «وتكلم؟»

أجابه مسعود: «لزوجها الحق في أمرها، أمك كافرة، وأنت كافر لأنك تناصر أمك، ويتوجب قتلكما.»

وغرق صوتها في بكاء حاد ، محمد يعيش حالة رعب وغضب مما سمعه، هل فقد الرجل عقله، كيف وصلوا بمسعود إلى درجة أن يفقدوه عقله؟

قلت: «عفراء... احذري الحزن، ضغط دمك مرتفع.»

«لم تعد صحتي تهمني ولا عمري كله، أنا سأجن.»

* * *

يسألني فؤاد هاتفياً: «ماذا يحصل عندكم في المجلس؟»

قلت: «لا تشغل نفسك، أعلن عضوان في مجلس الشعب استقالتهما.»

- أنا قلق يا رجل.»

أردت ممازحته على الوطن أم على توقف التهريب إلى تركيا.

استفزه مزاحي: «هذا رأيك بي؟...»

اتسعت الأحداث، ووصلت إلى حمص، والساحل السوري، وتم قطع الاتوستراد الدولي في مدينة بانياس وحدث اعتداء بالرصاص والمتفجرات على باص يقل أكثر من خمسين عنصراً من الجيش السوري في طريقهم لرؤية عائلاتهم، وحدثت تفجيرات بسيارات مفخخة في ساحة عرنوس، وأخرى بالقرب من ساحة الأمويين. ذهب ضحية التفجيرين رجال ونساء وأطفال وسيارات وراحت المحطات المعادية تصور الحدثين على

أنهما من أعمال المخابرات السورية، قابلت الدولة السورية هذا الضخ المعادي والتحركات الدموية التي اشتعلت في بعض المدن السورية بتحريك من جماعات الإخوان المسلمين بهدوء.

أخبرتني عفراء العائدة من اللاذقية أن مشاهد تشييع الشهداء توجع القلب.

- «شباب بعمر الورود يقتلون ذبحاً.»

انفجر بكاؤها... «أرأيت كيف ذبحوا جنّوداً في بانياس رأيت.»

كانت مشاهد القتل تبث عبر المحطات المعادية مصحوبة بفتاوى القرضاوي والعرعور وآخرين، بهدف تحريك الشارع السوري بردود فعل طائفية.

راحت رقعة المواجهات العسكرية مع المسلحين تتسع، وصلت حمص وحلب وإدلب... وتعرضت حقول النفط والغاز، وخطوط نقل الطاقة كهرباء وبترول وغاز إلى التدمير الممنهج.

في حمص، سيطر المسلحون على أغلب أحياء المدينة وبخاصة حي «باب عمرو» وتدفق السلاح عبر الحدود السورية القادم عبر البحر إلى مرفأ طرابلس.

كان تدفق السلاح ينذر بمزيد من الدم... وأعلنت كل من قطر والسعودية جهاراً تزويد القتلة بالسلاح لإسقاط النظام، وتولى وزير خارجية قطر إدارة الأزمة في الجامعة العربية، وفي الأمم المتحدة، وتوقفت حركة الطيران، والتنقل بقرار الجامعة العربية، وسحبت أغلب الدول العربية سفراءها من دمشق، وراحت أمريكا ودول الغرب تتهدد بعدوان يشابه ما حدث في ليبيا.

كنت أشعر أنني في حالة غضب، كان كل ما يمكنني تقديمه هو كتابة بعض المقالات في الصحف، على الرغم من إيماني بأن الصحف باتت من الماضي، فاهتمام المشاهد اليوم يتجه إلى الإعلام المرئي، كل الإعلام العربي والدولي كان منشغلاً بالحدث السوري، وتوالت تصريحات أردوغان، ووزير خارجية قطر تبشر بسقوط الدولة السورية بين أيام وأسابيع، ويخرج سعد الحريري بقول من باريس إنه سيعود إلى بيروت من مطار دمشق الدولي.

كانت تلك التصريحات تجعل الوضع العام متوتراً، ولم ينجح الإعلام والجهات الثقافية في استنفار الكتاب لمواجهة هذا العدوان الإعلامي المشتعل في مئات وسائل الإعلام في العالم.

كنت مع عفراء في قلب المدينة...

كانت صامتة ومتوترة مما يحصل في كل المدن السورية، وكنت أخشى عليها من السقوط في أي لحظة، لهذا أمسكت بذراعها ونحن نعبر الشارع نحو المقهى... طلبت قهوة، وتجنبت النظر في وجهها، أو التحدث معها، كنت مثلها متوتراً ومنفعلاً، ولكنني تماسكت من أجلها، ورحت أتابع التلفاز، كان يعلن عن انفجار في حي الزهراء بحمص، وعن انفجار آخر في حي الأزبكية بدمشق، ويعرض صور شهداء والدمار والدماء والحرائق والوجوه المحترقة والعيون المفزوعة من الموقعين.

كان ظهر عفراء على التلفاز، لهذا لم ترَ تلك المشاهد الموجعة.

وأظنها لم تسمع ما يقوله المذيع.

قالت بصوت عالٍ: «مسعود يحرض أخاه محمد على قتلي.»

تطلع رواد المقهى إلينا، قلت لها: «لا ترفعي صوتك، نحن في مقهى.»

أمسكت بفنجان قهوتها، وقلت: «اشربي قهوتك، وابعدي عنك القلق...»

- «كيف سأبعد قلقي، وهو يقول لأخيه أمك كافرة، وقتلها حلال. بت أخاف على حالي. سألت ابني خالد... هل تنوي قتلي؟»

بكي خالد... «أنت أمي.»

قلت: «أخبري الجهات المسؤولة بأمره.»

«لا، هؤلاء أولادي.»

غرزت أصابعها في شعرها، وشدت خصلة منه وصرخت بصوت عال:

«تعبت.»

التفت إلينا الجالسون في المقهى من جديد . قلت: «اهدئي.»

- «أنا أفقد عقلي.»

رأيت الرفيق عامر يجلس على طاولة قريبة... بدا أبيض الشعر، تملأ التجاعيد وجهه وحول عنقه وعينيه وشفتيه، وثمة بدانة تعطيه عمراً أكبر من عمره. اتجهت نحوه: «كيف الرفيق عامر.»

«رفيق... من زمان لم يناديني أحد هكذا !!... من أنت ؟»

«أنا وسيم الجبلاوي.»

«آ...عرفتك... سنوات طويلة مرت.»

نهض، واحتضنني... «مرات فكرت بزيارتك، لكنني ترددت، قلت ربما وجودي يحرجك، الناس عندنا مهتمون بالتفسير والتحليل للعلاقات العامة... أما زلت محتفظاً بنقائك الثوري، أم إنك صدئت كما صدأ كثيرون؟»

قلت: «أنا، تربيتك.»

«كانت ثقتي بك كبيرة.»

كان أمامه على الطاولة كتاب بعنوان «من يدفع للزمار»، لكاتبة بريطانية.

قلت: «أما زلت تمارس قراءة الكتب؟»

ضحك... «لقتل الفراغ.»

- ١٨ -

في صباح الثامن عشر من نيسان من عام ٢٠١١، كنت في قاعة المسافرين بمطار دمشق، ثمة أصوات رمايات مدفعية، وأزيز رصاص قريب من المطار.

أخبرني مسؤول الأمن في المطار أن اشتباكات تجري في جوبر ودوما، وحول القابون...

صوت الرصاص الغزير راح يجردني من فرحي بالسفر ويدفعني إلى الاعتقاد أن الخروج من الوطن تحت أي عنوان هزيمة.

قلت لزميلي في الوفد المتوجه إلى بنما لحضور مؤتمر البرلمانات الدولي: «دعنا نعود ، أنغادر، والحرائق تشتعل؟»

- «نحن في مهمة، والوطن يحتاجنا هناك .»

لم يكن من السهل عليّ تقبل فكرة السفر، ربما هي حالة عاطفية تملكتني في تلك اللحظة، وجردتني من شعوري أنني

في مهمة، في الوجع لا نغادر من نشعر بوجعه من أحبتنا، وهذا الوطن كما يقول مثل في قريتنا:

«الوطن محبوبنا الأول.»

شدني صوت زميلي، مختلطاً بأصوات رمايات مدفعية، وانفجارات حادة قريبة من المطار، اتصلت عفراء... «أين أنت، الدنيا مشتعلة.»

ماذا سأقول لعفراء التي تمرست على البكاء والحزن، والأسئلة القلقة:

«كوني قوية، أنا مسافر.»

«يعني أنت هارب؟»

صدمتني باتهامها، وشعرت أنني فعلاً هارب، جاءني صوت رئيس الوفد:

«تهيؤوا.»

أغلقت الهاتف دون أن أودع عفراء، عاودت الاتصال من جديد ، أغلقت الهاتف نهائياً، ورحت أتأمل المكان، كان مدرج المطار خاوياً إلا من بعض الطائرات السورية، وطائرة إيطالية، قيل لنا إنها جاهزة للإقلاع لنسافر على متنها إلى روما ومن روما إلى مدريد .

كان قرار الجامعة العربية يقضي بوقف الرحلات الجوية العربية إلى دمشق...

في صالة المطار، ثمة عدد قليل من الركاب يجلسون في بهو المطار الواسع وعلى وجوههم قلق.

فاجأني وجود الرفيق عامر في قاعة الانتظار.

«ماذا تفعل هنا؟» سألته:

«مسافر.»

ورأيت في عينيه حزناً ودموعاً، خجلت أن أسأله، هل أنت هارب، ولماذا تبكي؟ على وطن نازف، أم على مستقبل وطن تتناهبه أنياب الشياطين؟

خجلت من السؤال لرجل مثل الرفيق عامر، هذا الرجل زرعني بعشق وطن، لا أظنه سيخونه، سألني: «أرأيت ما يحدث للوطن؟»

- «رأيت.»

ولم أزد كلمة واحدة، ماذا سأقول؟ لكنني تجرأت وسألته السؤال الذي كان يتفجر في نفسي: «أأنت مسافر... أم ؟»

ابتسم ابتسامة فاترة «أم هارب؟ قلها... مثلي لا يهرب من الوطن في زمن وجعه، سأحضر مؤتمراً في روما للتحالف مع الوطن، الوطن في خطر الآن، وعندما تنتهي الحرب لكل حادثة حديث.»

خطر لي أن أعتذر منه على سوء ظني به... هذا الرجل كان كبيراً على الدوام في نظري، وهو اليوم كما كان في الماضي يعطي دروساً في حب الوطن، وهو الذي أمضى عشرين عاماً في سجن الوطن.

سألني: «إلى أين ستسافر؟»

قلت: «إلى بنما لحضور مؤتمر، قد يحتاجنا الوطن فيه.»

- «على الدوام كنت متفائلا بك.»

- «... وكنت خائفا علي.»

- «نعم... وسأظل.»

* * *

بنما العاصمة...

مدينة حديثة، ووجوه الناس فيها من ألوان كثيرة ومتجانسون، قلت للزميل سليمان رئيس الوفد: «نحن في الوطن تتشابه وجوهنا، وتختلف قلوبنا.»

قال: «لا تنكأ جراحنا، يا رجل.»

في الفندق، ثمة فتاة شابة تتولى شؤون استقبال النزلاء.

أدهشت بمدى التشابه مع وجه جويل .

قلت لزميلي بصوت مسموع:

«يخلق الله من الشبه أربعين، هذه الفتاة تشبه فتاة عرفتها قبل أربعين عاماً.»

التفتت الفتاة إليّ وردّت بالعربية: «هل تقصدني؟»

ارتبكت، وفاجأتني بسؤالها، وبحديثها بالعربية، قلت :

- «نعم.»

- «من أشبه؟»

- «صديقة، أظنها صارت اليوم عجوزاً، هي تشبهك تماماً في زمن فتوتها.»

- «أنتم سوريون؟»

- «نعم.»

- «وأنا جذوري سورية، ومن مدينة.»

طلبت لنا قهوة، وقالت: «هي قهوة أهلاً وسهلاً كما يقولون في سورية.»

وأخبرتنا أنها مسؤولة العلاقات العامة في الفندق.

ونحن نشرب القهوة ، سألتني: «ما اسم صديقتك؟»

قلت: «جويل.»

قالت: «هو اسم أمي.»

تتعمق لدي قناعة الشبه بينها وبين جويل.

قالت: «اعذرني على فضولي، هل صديقتك تشبهني فعلاً، أم أنك تمازحني؟»

أقسمت لها بالله أنها تشبهها.

«ربما أردت مشاكستي كما يفعل عادة زبائن الفنادق؟»

أقسمت لها بالله أن حكايتي حقيقية، وأنني لا أريد مشاكسة فتاة بعمر ابنتي.

«أصدقك، وأنا اسمي جوليانا، وتناديني أمي أحيانا جولي.»

قلت: «يا ألله!!! جوليانا، لا تشبهين جويل في ملامحها فقط، وإنما في طريقة الحديث، وفي الصوت، وفي تسريحة شعرك.»

ردت: «أنت تدهشني بكلامك.»

كان زملائي يتهيؤون للتحرك لحضور جلسة افتتاح المؤتمر. قلت:

«عندما أعود من جلسة المؤتمر... نتابع حديثنا.»

سألتني: «لم تخبرني باسمك.»

«وسيم الجبلاوي.»

*   *   *

في مؤتمر البرلمانات الدولي ...

دارت حوارات حول ما يجري في سورية...

كان تأثير الإعلام العالمي المضلل قد أشبع كثيرين في المؤتمر بفكرة أن ما يجري في سورية ثورة شعبية قلت لزميلي: الإعلام الأمريكي يسيطر على صناعة الرأي. «وكان لا بدَّ من مداخلة طويلة، وتوقفت عند الهدف من كل ما يجري في سورية، وأنه مخطط أمريكي صهيوني قديم لتدمير الدولة السورية التي رفضت الاستسلام.»

ودارت حوارات حول تلك الفكرة، بين مؤيدين لها، ومدافعين عن إسرائيل، والملفت أن الصمت كان يربط ألسنة البرلمانيين العرب.

عندما عدت من الجلسة لم أرَ جوليانا.

قالت لي موظفة الاستعلامات: جوليانا... تركت لك رسالة.

« السيد وسيم أنا عائدة في الصباح... تركت لك في غرفتك ما يمكن أن تحتاجه من عصائر ومشروبات ورقم هاتفي إن احتجتني لأمر اتصل معي.»

في الصباح، توجهنا مع القنصل السوري لزيارة قناة بنما الشهيرة... قبل أن تصل جوليانا إلى الفندق، والقناة بطول ٩٠ كم، تعبرها السفن على نظام الأحواض، لأن الفرق بين المحيطين الهادي والأطلسي حوالي ١١م ، يملأ الحوض لتنتقل السفينة إلى الحوض الثاني، وهكذا إلى أن تعبر إلى الحوض الثالث فالرابع وفي النهاية إلى المحيط .

عندما عدنا، دعتني جوليانا إلى حديقة الفندق، وقالت:

«انتظر... سأحضر فنجاني قهوة لي ولك، ونتحدث.»

كانت حديقة الفندق تزدحم بأشجار البابای وجوز الهند والخيزران والورود الاستوائية، أحسست بأنني في حديقة من حدائق الجنة، جلست جوليانا قبالتي، وراحت أسئلتها تتدفق

حول الوطن «لماذا كل هذا الدم، ولماذا تتدمر سورية»، وماذا عن مدينة أمي حلب، ثم عادت وسألتني :

- «ماذا عن جويل ... هل كنتما متحابين؟»

- «جويل ما زالت تسكن ذاكرتي، لكنني أجهل تفسير ما الذي تعنيه هذه المساكنة طوال هذه السنوات، أهو الحب، أم مجرد ذكريات؟»

اقتربت بهاتفها الخلوي مني، وفتحته على أيقونة الصور، وقالت:

«هذه صورة جدتي جويل... أتشبه صورة جويل صديقتك؟».

رحت أتأمل الصورة، ثمة شامة نافرة على شفتها العليا، وخلف الصورة لوحة بألوان المائي لباقة من أزهار النرجس البري... كانت تلك الشامة تميّز جويل كعلامة فارقة... طال تأملي للصورة. عادت تسأل:

«أهي فتاتك، أم تشبهها.»

ظلت نظراتي تنسكب على تفاصيل وتتوقف على الشامة، أذكر أنني كنت أناديها أحيانا بأم «شامة»... وكانت تضحك... ذات يوم أخبرتني جويل أنها ستنتزع تلك الشامة بعمل تجميلي، أعلنت رفضي، وقلت:

- «لا تفعلي، هي علامتك الفارقة.»

قالت: «لأجلك لن انتزعها.»

بقيت أتأمل الصورة، لا زالت جويل تحتفظ بوعدها لي، وأبقت الشامة، تابعت تأمل الصورة، ثمة خصلة شعر تنسكب على عنقها لتغطي بعض التجاعيد التي ترسم خطوطها الدائرية.

عادت تسأل:«أهي جويل فعلاً؟»

أنكرت «لا أدري.»

أمسكت بهاتفها والتقطت صورة لي، وقالت :

«هي صورة للذكرى، وسأرسلها إلى أمي... أظنها ستتعرف عليك إن كانت هي جويل صديقتك، المرأة غير الرجل، لا تغادرها صورة الرجل الذي عرفته، تجعله في خزائن الذاكرة.»

كان صمتي يؤكد شكوكها، وأنه اعتراف غير معلن بأن من في الصورة هي نفسها جويل التي تسكن ذاكرتي.

سألتني للمرة الأخيرة: «قل هي أم لا؟»

- «لا أعرف.»

- «أنت تنكر.»

كان موعد طائرتنا يقترب، قلت: سأودعك.

لكنها أصرت أن أجيب: «قل لي أهي جويل؟»

ورغم أنني لم أجب.

ابتسمت، وقالت: «أظنني عرفت إجابتك.»

:::::::::

كان الليل ينتصف في دمشق عندما حطت بنا الطائرة على أرض المطار...

قال مستقبلنا: «دمشق تشتعل، أعمال عنف في كل الأحياء المحيطة بدمشق، والوصول من هنا إلى قلب العاصمة خطر، فثمة أعمال قنص على جانبي طريق المطار.»

قلت للسائق: «خذني إلى كراج اللاذقية، سأسافر الليلة.»

كانت الساعة تقترب من الثانية والنصف ليلاً عندما وصلنا كراج باصات السفر قرب ميدان «العباسيين» الذي كان هو الآخر يغرق في صمت ثقيل كصمت القبور.

قال شرطي يقف مع زملائه قرب الكراج: «كل شيء كما ترى، وكأننا في مقبرة. - تعال في الصباح، لعلك نجد سفراً.»

قال زميلي أحمد: ابني ينتظرني في مكان سكننا، في الصباح تذهب معنا إلى حمص، ومن هناك تسافر إلى اللاذقية.

نشرة الأخبار التي كان يقدمها راديو السيارة تعلن أن مدينة بانياس مشتعلة بالاضطرابات، وأن الجنود تعرضوا للقنص، والقتل أثناء مرورهم فيها.

وأن «الأوتستراد» الذي يعبر المدينة محفوف بخطر القناصة.

كان الوصول إلى سكن مجلس الشعب في «دمر» في تلك الساعة المتأخرة من الليل خطراً... وكانت أصوات بنادق، ورمايات مدفعية تمزق سكون المدينة المفزوعة... راح إحساسي بالقلق يكبر، الشوارع خالية يخترق صمتها بين الحين والحين رشات من بنادق آلية... وثمة طلقات مضيئة ترسم أقواساً ملونة في سماء دمشق بكل الاتجاهات، قال زميلي: «أظننا لن نصل السكن أحياء؟»

- «هي ميتة واحدة.»

كانت الساعة تشير إلى الثالثة والنصف صباحاً عندما وصلنا السكن.

قال زميلي: لنتحرك في الخامسة صباحاً.

اتصلت مع زوجتي وأولادي، أخبرتهم أنني وصلت دمشق، قالوا «المدينة مشتعلة، والأمور مرشحة لمزيد من العنف، ابقَ حيث أنت، فالطريق غير آمنة في بانياس.»

لم أستطع النوم، كانت عيناي على الساعة، مرت الخامسة، وتخطت الخامسة والنصف، ولم يتصل زميلي أحمد كما اتفقنا، اتصلت إلى غرفته، فلم يرد، اتصلت على هاتفه الخلوي، لم يرد أيضاً، سألت الحارس، قال: سافر منذ ساعتين.

صار لدي اعتقاد أنه تعمّد ذلك، إما لخشيته أن توقفه عصابة إرهابية وتسأله لماذا يركب في سيارته رجل رافضي كما يقولون أو لاعتقاده أن النظام سيسقط، ولن نلتقي ثانية تحت قبة المجلس.

اتجهت إلى «كراج البولمان»، ثمة باص كان يتحرك، قال لنا السائق:

- «قد نصل وقد لا نصل، انتبهوا.»

كان الشوق يكبر بي لرؤية أسرتي.

جاءني اتصال من عفراء:

- «قلبي قال لي إنك عدت.»

- «نعم.»

- «تعال لزيارتي، أنا بحاجة إليك، بحاجة للحديث معك.»

- «ماذا يحدث؟»

- «مسعود يقاتل مع القاعدة، ومحمد ترك الجامعة والتحق بالجيش.»

- قلت: «أنا في طريقي إلى الساحل الآن.»

علا صوتها مفزوعاً: «أنت مجنون الدنيا تحترق، حمص مشتعلة، وريف حمص مشتعل، والحدود اللبنانية السورية معبر للسلاح والقتلة نحو الداخل السوري.»

قلت: «ها أنا أتجاوز مدينة حمص، واتجه غربا نحو البحر.»

«ما فعلته جنون.»

كان الجنود ينتشرون بكثافة على جانبي الطريق...

في بانياس، رأيت الجنود على شرفات المنازل وعلى الأسطح، اتصلت مع البيت، قلت لهم: «أنا على مقربة من مصفاة بانياس.»

كانت «جبلة» تشتعل بالمظاهرات، كما قال لنا عناصر الحاجز العسكري القريب من مصفاة بانياس، وأخبرونا ثمة مجموعات

من الريف تحاول الدخول إلى المدينة لمهاجمة المتظاهرين، ولكن رجال الأمن منعوهم.

عندما وصلت إلى «دوار المدينة» بدت الأمور تنذر بعاصفة... عشرات الجنود يوقفون السيارات والدراجات النارية التي تريد الدخول إلى المدينة.

وثمة أصوات رصاص قادمة من قلب المدينة.

اتصلت عفراء: «هل وصلت؟»

- «نعم.»

- «الحمد لله، ومع ذلك، أنت أكبر مجنون.»

مازحتها... «أنافسك على الجنون.»

- «بفعلتك هذه سبقتني.»

اتصل فؤاد ... «الحمد لله على السلامة.»

ثم بكى، سألته: «ما بك؟»

قال: «قتلوا ناصراً، مجموعة أطلقت عليه النار أمام بيته.»

- «ولماذا أولاد الحقد؟»

- «قالوا إنه عوايني.»

- «ماذا يعني هذا الاسم.»

- «أي متعاون مع الدولة.»

هزني الخبر، سألني سائق التكسي الذي أقلني من دوار المدينة إلى بيتنا القريب من المدينة «لماذا تبكي؟» قلت: أخبرت الآن بمقتل صديق.

قال السائق: سنبحث مستقبلاً عن الدموع ولن نجدها لنبكي المزيد من الأحبة والأصدقاء والأهل.

- ١٩ -

راحت قذائف الهاون تتساقط في محيط ساحة العباسيين، وفي مزة ٨٦، وساحة عرنوس، والسبع بحرات... وجرمانا وتناثرت دماء، وجثث قتلى أطفال ونساء ورجال ودمار منازل وحرائق طالت سيارة متوقفة وأخرى عابرة، تفحمت في داخلها جثث، وغطت سحب دخان الحرائق الأمكنة ومعها رائحة شواء الجثث المحترقة إلى درجة التفحم.

دخلت الجامع الأموي، كانت الوجوه مفزوعة ، ثمة رجل دين يدعو الله لوقف الحرب والدماء، قلت له: «يا شيخنا، قولوا للناس ما يجري كفر.»

هزّ رأسه، ولم يجب.

- هاتفتني عفراء: «وسيم ... أين أنت؟»

- «في الجامع الأموي.»

- «الحمد لله، اطمأنيت عليك أنك بخير. كان بيني وبين الموت لحظة... »

- «كيف؟».

- «كنت في ساحة عرنوس لحظة الانفجار، دخلت متجراً لشراء بعض الأشياء، القدر كان معي، لولا ذلك ، لكنت الآن أنت تكتب رثاء لي.»

- «الحمد لله على سلامتك.»

- «هل أنتظرك في مقهى الهافانا؟»

- «نعم.»

- «لا تتأخر.»

* * *

اتجهت إلى مبنى مجلس الشعب، فوجئت برسالة يشير خاتمها وطابعها البريدي إلى فنزويلا، اعتقدت للوهلة الأولى أن الرسالة قادمة من البرلمان الفنزويلي كوني رئيساً للجنة الصداقة البرلمانية السورية الفنزويلية. ولكن ما هو غير متوقع نهائياً أن الرسالة كانت من جويل. تملكتني حالة اندهاش... «من جويل؟!... خارج التوقع.»

لم انتظر الذهاب إلى قاعة الجلوس، قرأت القراءة الأولى بسرعة، وأنا غير مصدق، وفي القراءة الثانية، رحت أتوقف عند كل كلمة في الرسالة:

«وسيم... بالتأكيد ستفاجأ برسالتي كما فوجئت أنا بلقائك مع ابنتي في بنما.

كنت تقول لي يوماً «نحن كشراع تحركه ريح الأقدار»... حدثتني جوليانا عنك، وأرسلت إليّ صورتك، كنت سعيدة برؤية الصورة... قرأت الزمن في وجهك... رغم أن وجهك لا زال يحتفظ بتفاصيله الجميلة... عرفت أنك أصبحت برلمانياً، هذا أمر مفرح، أتوقعك برلمانياً جيداً.

اليوم... رغم فرحي بك، أنا حزينة... لأن سورية تنزف، هذا الوطن يسكنني، تسكنني حلب، قلعتها... الحديقة العامة، وتمثال أبي فراس الحمداني، الذكريات الحميمة، وسيم... هل يستطيع الدم أن يدمر ذاكرتنا؟ لا أعتقد.. ثمة جسر بين الذاكرة والماضي... وعليه تعبر حكاياتنا... أحلامي كثيرة، يتصدرها حلم رؤيتك، وحلم العودة إلى حلب.»

علا صوت انفجار، اهتز بناء المجلس... راح الناس من شرفات المجلس، ومن شرفات المباني المجاورة وفي الشارع، تستطلعون مكان الانفجار، ثمة دخان راح يتصاعد من منطقة المرجة، قال أحد الحراس:

«ثمة إرهابي فجر نفسه في مدخل وزارة الداخلية.»

مشت نظراتي على حركة الشارع، ما يجري اختطف هدوء الناس، وزرع في نظراتهم، وخطواتهم السريعة الفزع والقلق.

زرت رئيس المجلس في مكتبه، وسألته: كيف وصلنا إلى هنا؟.

راح يهز رأسه بصمت، وهو يقلّب صفحات كتاب أمامه، وعلى وجهه علائم الذهول، سألته سؤالاً آخر: «هل تخيفك الأحداث؟»

أحسست بسؤالي كان سخيفاً ومباشراً، لهذا قررت إعادة صوغ السؤال من جديد: «هل الأوضاع مخيفة؟»

ترك الكتاب، ونهض نحو النافذة، وتأمل الشارع، وعاد ينظر إليّ، وبعد صمت، أجاب: «سأكون شفافاً في الإجابة... لم أشعر بالقلق والحزن كما أشعر الآن: يوم استشهد أخي لم أحزن

كما أنا حزين اليوم، كان أخي ضابطاً في حرب تشرين، كان إيماني عندما استشهد ثمّة من يأخذ موقعه... اليوم نشهد استشهاد وطن.»

كان يتكلم بحرقة وحزن يمشي على تفاصيل وجهه الأبيض الميال إلى الحمرة، وفي عينيه الزرقاوين، لكنه راح يتأملني وأعاد بناء عباراته بروح التفاؤل:

«مؤمن أن الحريق سينطفئ، وأن الوطن سيتعافي... هي سورية دائماً من وجع إلى وجع... لكن الجرح اليوم عميق.»

قال وهو يودعني... «انتبه إلى نفسك.»

«كيف؟... لا أعرف.»

قال: أتابع ما تكتبه، في الكتابة اليوم نضال، أنت لا تتوقع تأثير الإعلام في الناس.»

قلت: «أعرف، لكن الجهات الإعلامية هي التي لا تعرف.»

* * *

اتجهت نحو الهافانا بخطوات أقرب إلى الجري السريع، استوقفني شرطي: الطريق إلى المرجة مقطوع وخطر، هناك تفجير.

«أعرف، أنا ذاهب إلى الهافانا على بعد خطوات.»

كانت عفراء تنتظرني، تمنيت لو أنني لم أواعدها على اللقاء، يكفيني ما بي من حزن، عفراء ستشعل حزني أكثر، بكاؤها بات يؤرقني، نصحتها مراراً بالتوقف عن البكاء، لكنها أجابت: «ليس الأمر في يدي، أي شيء بات يبكيني... لماذا المكابرة، ما الذي يفرح، والوطن في بركة دم، البارحة أخبرت أن قريتنا استقبلت في يوم واحد أربعة شهداء، وكلهم أقرباء، هل تستطيع أن تضحك؟»

جلست قبالة عفراء ورسالة جويل في يدي.

سألت عفراء: «ما هذه؟»

تركتها أمامها على الطاولة... «رسالة من جويل.»

- «من جويل ؟! .. كيف؟!»

- «نعم.»

- «هل تسمح لي بقراءتها.»

- «نعم.»

بدت وهي تقرأ الرسالة وكأنها على حافة البكاء... قلت: «عفراء، لا نريد بكاء.»

لم ترد عليّ، في الواقع، تمنيت لو أنني استطيع البكاء كما تفعل عفراء ...

لعلها لاحظت أن دمعة حزينة تجوب مآقيّ تأثراً بحزنها، نظرت إليّ للحظات، وقالت: «لا يليق بك أن تبكي.»

- «لن أبكي.»

- «هل رسالة جويل تثير حزنك؟»

- «لم أعد أعرف ما الذي يثير حزني؟»

- «أما زلت تحب جويل؟»

- «لم يخطر في بالي موضوع إن كنت أحبها أو لا أحبها...

هي مجرد صوت من الماضي يتحرك الآن في وسط هذا الركام من الأحداث...»

- «وهل الحب كما يقولون للحبيب الأول.»

- «أبداً، الحب لم يستطع أن يجعل فينا شعلة الحب متقدة على الدوام».

أ تجرأ وأسألها: «هل لديك شوق لتجربة حب؟»

- فاجأها السؤال، ورغم ذلك ابتسمت متجاوزة حزناً في صوتها:

- «سأصارحك، لأنك أخي، أحببت زوجي، والرجل كان وفياً لي وللوطن، واحتراماً له، ولكونه شهيداً، قطعت عهداً على نفسي أن أكون وفية له.»

- «عفراء، أنا أعتز بك.»

- «وأنا اعتز بك، المهم ماذا ستقول لجويل، هل ستكتب إليها

- «سأكتب»

* * *

كتبت إلى جويل عبر بريدها الالكتروني المكتوب في أسفل رسالتها:

«سأحدثك عن الوطن كما طلبت...

من السهل علينا أن نتحدث عن الوطن وهو معافى ...

لكن الوطن اليوم في أزمة، من هنا، يكون الحديث عنه مؤلماً...

تسألين «كيف حدث ما يحدث بالوطن؟»

هو السؤال الذي يسأله الجميع هنا، والجميع ليسوا متفقين على إجابة واحدة ...

هناك من يتحدث عن مؤامرة خارجية، أطرافها كثيرة...

وهناك من يتحدث عن أسباب داخلية، خلقت نوافذ تمر منها المؤامرة...

وفي رأيي إننا نسينا أن هناك مؤامرة، وتشاغلنا عنها وعن أطرافها وعناصرها في الداخل والخارج... فالوطن اليوم «مغطوط» في بركة دماء...

ونحن العاشقين لهذا الوطن نقاوم موت الوطن، وموتنا... لأننا أمام موقف محدد: «إما الموت، أو الانتصار.»

بالتأكيد تريدين أن أحدثك عن حلب...

أنا عاشق لتلك المدينة...

والعاشق عندما يتحدث عن معشوقته في زمن وجعها، يصل إلى حافة البكاء... وعلى الرغم من قسوة الوجع أرفض البكاء، في البكاء هزيمة، وبخاصة في زمن كهذا الزمن، لا أنا سأبكي، ولا حلب ستبكي... حلب صامدة وقوية ونابضة بالحياة رغم جراحها النازفة، البارحة اتصلت مع زميلي عبدو وسألته عن أحوال حلب، أخبرني أن الإرهابيين يقطعون عنها الماء والكهرباء، ويمطرون المدينة بقذائف جهنم فقط .

أضحكني قوله «فقط»... الإرهاب يقطع الماء والكهرباء ويلقي قذائف جهنم على المدينة... هل استسهل ما يحدث؟ كلهم في حلب يستسهلون ما يحدث، ليظلوا صامدين... بقى أن أحدثك عن أبي فراس الحمداني، طمأنني الصديق عبدو أن أبا فراس بخير، وما زال يمسك بسيفه، هل تذكرين يوم رحت تمررين أصابعك على مقبض سيفه، وجاء الحارس يطلب الابتعاد عنه؟

على فكرة، هذا المشهد لا يغادرني...

يوم تأتين حلب، سنزور أبا فراس والقلعة والسبيل والسليمانية ومحطة بغداد والجابرية والهلك، وحوشنا القديم، ونترحم على أمينة، والعم وانيس، حكايتهما جزء من حكايتنا التي أرويها لأولادي وأحفادي دائماً.

سأغادر دمشق اليوم، قد أعود إليها وقد لا أعود ... لأنني لا أود الترشح ثانية إلى البرلمان... تعبت من مداخلاتي، وتعبت من صمت الحكومة عليها...

وتعبت من الأحداث، ومن صوتي المتدحرج في أعماقي...»

- ٢٠ -

رتبت فاطمة حقيبة سفري، بيجامة نوم، وطعام خفيف، قلت :

- «هل أنا مسافر إلى صحراء؟»

ضحكت: «يظل قلبي قلق عليك.»

ثم تأملتني: «لماذا السفر إلى دمشق، الدنيا مشتعلة؟»

«لدي عمل، وسألتقي بعض الأصدقاء.»

- «وعفراء؟»

- «وعفراء، هل ثمة مشكلة ؟»

«لا.»

وعلى الرغم من تظاهر فاطمة بالمزاح، إلا أنني قرأت الغيرة في عينيها ، ولهذا قلت لها:

«قلت لك ألف مرة، عفراء أختي، هل تعرفين ما معني الأخوة بين رجل وامرأة.»

لم ترد، ومشت معي إلى الباب، وودعتني بعينين ذابلتين، كنت أتساءل هل فعلاً تزعجها علاقتي مع عفراء، أم أنها حزينة لسفري، في وقت تتناقل فيه وكالات الأنباء أخبار تفجيرات واشتباكات في دمشق، وعلى امتداد الطريق بين حمص ودمشق.

احتضنتها. منذ زمن لم أحتضنها، كنت فعلاً أشعر بالقلق، وخطر لي إلغاء سفري، لكن صوت ابني استعجلني «تأخرنا على البولمان.»

اتصل معي فؤاد : «صحيح... أنت ستسافر؟»

- «نعم.»

- «هذا جنون.»

- «سأسافر.»

- «انتبه على نفسك.»

تأملت وجه فاطمة، وابتسمت لها، بادلتني ابتسامة حزينة، قلت:

«فاطمة أريد دعاءك.»

قالت: «ليكن الله معك.»

عادة، وقبل أن أغادر البيت، أطلب من فاطمة الدعاء لي، فتبتسم من قلبها ، فتتمنى لي التوفيق، وإبعاد أبناء الحرام عني.

بعد اشتعال الحرب على سورية، راحت تدعو الله أن ينصر الوطن، ويعيد المحبة إلى قلوب أبنائه، وكانت عندما تسمع بخبر تفجير، أو اقتحام بلدة، أو موقع عسكري، تلف رأسها بإيشارب، وتبكي.

فأتلقف رأسها، واقبّله... «أنت رائعة، يا قديستي.»

استقبلني سائق البولمان بحفاوة، وقال: «مقالك الأخير في الصحيفة فيه تشاؤم، هل أنت متشائم فعلاً؟»

قلت: «لا، الأمور بخير.»

قال: «اجلس إلى جوار السيدة نازك، ألا تعرفها؟»

«لا.»

«السيدة نازك لا تسافر عادة في البولمانات، وهي أشهر من نار على علم.»

التفت إليها، بدت عيناها عسليتين وجميلتين، ووجهها بيضاوياً، وشفتاها مصبغوتين بأحمر شفاه أحمر، وشعرها مصبوغاً باللون

الأشقر، ينسدل على كتفيها، وكان بين أصابعها لفافة تبغ غير مشتعلة .

قلت: «صباح الخير.»

وجلست إلى جوارها، ردت بابتسامة : «أهلاً، سيد وسيم.»

- «هل تدخن؟»

- «لا.»

- «هل تسمح ؟»

لم أرد، أخرجت قداحة ذهبية من حقيبة يدها، وأشعلت لفافتها، وقالت:

«أنا أسفة، لا أستطيع ترك التبغ.»

وتابعت، «قلت لقاطع التذاكر وأنا استعرض الأسماء، ضع مكان جلوسي إلى جانب السيد وسيم الجبلاوي، أنت لا تعرفني، أنا أعرفك جيداً، وأتابع ما تكتبه، وأتابع إطلالاتك التلفزيونية القليلة ، لماذا هي قليلة؟»

- «اسألي إدارة التلفزيون.»

- «أنت أفضل من كل هؤلاء الذين نبتوا فجأة.»

- «شكراً.»

كنت لا أريد أن أفتح حواراً معها، كما أنا عادة مع أي امرأة خلال السفر، أحضر سائق البولمان لكل منا فنجان قهوة، وقال: «تفضلا.»

واتجه بكلامه إليّ «سمعنا أخباراً طيبة، هل في الأفق شيء يخصك؟»

«لا.»

«أنت أفضل من كل هؤلاء الذين يتصدرون الواجهة.»

قالت نازك : «أضيف صوتي إلى صوتك، يا أبا عبدو.»

وتابعت: «بو عبدو... اسمعنا أغنية فيروزية.»

والتفتت بحديثها إليّ: «تعبنا من أخبار الدم، ومن هؤلاء المحللين السياسيين الذين يقولون خلصت، وهي تشتعل كل يوم أكثر من الآخر، هؤلاء لا يختلفون بغبائهم عن أؤلئك الذين يقولون سيسقط النظام في أسبوع أو أسبوعين.»

تحرك البولمان، قدمت لي قطعة شوكولا... «تفضل مع القهوة.»

- «شكراً.»

- «لماذا أنت مسافر إلى دمشق، هل لديك لقاء تلفزيوني.»

- «لا.»

- «سأقابل مدير التلفزيون ، هل تذهب معي للقائه؟»

- «لا.»

- «من يومين اتصل معي...»

- «عندما نصل دمشق، ستذهب معي لنشرب القهوة في مكتبه، الرجل لطيف ، معرفة هؤلاء لا تضر، ما رأيك؟»

- «ليس لدي وقت.»

- عندما اقترب رأسها مني، عبقت رائحة عطرها في رئتي، أدرت وجهي بالاتجاه الآخر، وخطر لي الانتقال إلى مقعد فارغ في آ خر البولمان، جاءني صوت سائق البولمان: «هل تريد شيئاً أستاذ وسيم؟»

- «لا.»

كانت فيروز تغني دمشق من شعر سعيد عقل ، قالت نازك:

- «عيب الأغنية أنها من شعر سعيد عقل، ما رأيك؟»

- قلت: «لا أعرف من قبل إن كانت من شعره ، ما المشكلة.»

- «هو معاد لسورية.»

- «ولكن مضمون الأغنية جيد.»

- «لا أريد هذا المضمون من رجل حاقد.»

من جديد، فكرت بالانتقال إلى المقعد الخلفي...

في تلك اللحظة رن هاتفي، كانت عفراء على الخط تخبرني أن أبنها محمد وضع ساقاً صناعية في مشفى تشرين العسكري، وأن ابنها خالد يفكر بالهجرة إلى تركيا، وأن مسعود وراء كل ما يجري... وبكت، قلت:

«عفراء، قلبي طق من بكائك، أنا قادم إلى دمشق، عندما نلتقي نتحدث.»

وأغلقت الهاتف.

- سألتني نازك: «هل هي صديقة؟»

تجاهلت سؤالها، لكنها تابعت حديثها:

«الناس متعبون، لا أحب هذه النوعية من الأصدقاء الذين ينقلون إلينا أحزانهم، تكفينا أحزاننا، الوطن كله غارق في بحر من الأحزان... اليوم أحمل تعب أكثر من أم شهيد وزوجة

شهيد، سأضطر لمقابلة بعض المسؤولين من أجلهم، هل لديك أحد تريد متابعة أمره؟»

«لا.»

التفت نحوي الجالس أمامي مباشرة:

«ألست وسيم الجبلاوي؟»

«نعم.»

قال: «أقرأ ما تكتبه، جميعكم تكتبون بلغة الخطاب، تعبنا من الخطب.»

«معك حق، ونحن تعبنا.»

«أكتب كيف اخترقتنا الحرب؟»

بصراحة...

هذا السؤال يشغلني، وأسأله لنفسي، وأسأل لماذا نجح الخطاب التكفيري في اختراق كثيرين في الوطن. قالت نازك للرجل:

«هذا تشكيك بخطاب الإعلام الوطني.»

قال لها الرجل: يا سيدتي... أنا أسأل السيد وسيم.

ردت نازك بعصبية:

- «ألا يعجبك كلامي؟»

- «يعجبني.»

عاد الرجل يسألني معاتباً: «لمَ لم تجب عن سؤالي؟»

قلت: «أنا أحتاج لمن يجيبني على السؤال نفسه.»

برم وجهه باستياء... «هذا هروب من الإجابة، كانت ثقتي بك أكبر.»

«هل تريدني أن أقول ما لا أعرفه كما يفعل آخرون.»

«أنت تعرف.»

اتجهت نازك بكلامها إليّ: «تبدو كأنك من المعارضة.»

«نعم من المعارضة، للمعارضة والفاسدين، والدجالين.»

ضحكت: «إجابة فلسفية.»

لم يعد بإمكاني تحمل تعليقاتها، ولم أجرؤ على تغيير مكاني بالتراجع إلى المقعد الفارغ في مؤخرة البولمان... كنت أخشى إثارة قضية، لهذا تركت رأسي على المقعد الأمامي، وتظاهرت بالنوم.

كنا نقترب من بلدة تل الكلخ ...

ثمّة جندي يقف على حافة الطريق يطلب من سائق الباص التوقف.

وثمة سيارات كثيرة تقف أمامنا، ورجال على جانب الطريق يدخنون وفي نظراتهم قلق، من النافذة سألت الجندي: «ماذا يحدث؟»

قال: «العصابات الإرهابية تهاجم السيارات العابرة عند مفرق حمص.»

قلت للسائق: «عد بنا... يبدو أن الأمور خطرة.»

قال: «أمامنا أرتال من السيارات، الله يحمينا من ابن حرام يفجر نفسه.»

صرخت نازك: «يا ويلي، هل نحن في خطر؟»

كاد رأسها ينام على كتفي: «وسيم... هل نحن في خطر؟»

«لا.»

«الحياة لم تعد تطاق، والناس فوق غير مبالين.»

تجاهلت تعليقها، قال رجل مسن موجهاً كلامه إلى ركاب البولمان:

«الأعمار بيد الله، المكتوب على الجبين ستراه العين.»

يتوجه سائق الباص بالحديث إليّ: «أجب يا حضرة النائب.»

قلت: «تركت «النيابة.»

- «لكنك كاتب، ونتابع آراءك! قل لنا الحقيقة.»

قال الرجل المسن بلغة ساخرة: «أين الكتّاب؟... هربوا من الحرب؟»

وتوجه بالسؤال إليّ: أسألك يا حضرة النائب... أين الذين كانوا يمارسون علينا بلاغتهم الخطابية، هل هربوا إلى المعسكر الآخر؟.

كنت أشعر بالتعب من تلك الحوارات، أعترف ليس لدي إجابة. سألتني نازك: «لماذا لاتجيب؟»

وارتفع صوتها نحو الرجل المسن وكأنها تلقي خطاباً:

«كلهم هربوا، وسيعودون عندما تنتهي الحرب لممارسة فن الخطابة.»

ظلّت نازك الأكثر إثارة للجدل.

أعلن الجندي عن فتح الطريق، قال لسائق الباص: «بإمكانك التحرك ، الطريق آمن الآن.»

هاتفتني عفراء: «وسيم، أين أنت الآن؟»

- «ما زلت في الطريق.»

- «هناك اشتباكات عند مدخل حمص، هل تجاوزت المكان؟»

- «لا.»

- «يا ويلي، عد إلى البلد.»

- «الأمور بخير.»

وضحكت.

«سألني الجالس إلى أمامي: «هل تضحكك أسئلة الناس؟»

أحسست بالخجل، قلت: «صديقة تحدثني عن انتظارها لي.

لاذ جاري بالصمت، كنت على يقين أن جوابي لم يقنعه.»

توقف الباص للحظات في مكان الحادث القريب من «دوار حمص» وخرجت رؤوس الركاب من النوافذ تستطلع المكان، ثمة جنود يلبسون دروعا واقية من الرصاص، وعلى رؤوسهم خوذات، وسيارات إسعاف تتحرك، قال أحد الحضور بصوت عال من دون أن يسأله أحد:

«سقط أكثر من عشرين مدنياً قتلى، وأكثر من ذلك جرحى.»

راحت نازك تحدّثني عن افتقار وسائل الإعلام إلى الإمكانيات اللوجستية لنقل الأخبار بسرعة كما تفعل محطات أخرى، «ما رأيك؟»

قلت: «لا رأي لمن لا يطاع.»

قالت: «لم أكن أعتقد أنك سلبي هكذا.»

تنهدت... «يا سيدتي، لا أحد يطلب رأيي، ولا رأيك.»

قال الجالس أمامي: «أستغرب كيف تصبحون أنتم الجالسون فوق غير مبالين.»

قلت: «ومن قال لك إننا لا نتألم كما يتألم الناس؟»

«رأيتك كيف تجاوزت أسئلة الناس بالضحك.»

قلت: «أنت لم تفهمني، وتصحيحاً لما قلته أنا لست من الجالسين فوق.»

هزّ رأسه وهو يتمتم... «الفقراء وحدهم يشعرون بوجع الوطن.»

كنت على يقين أنه يتمنى لو يستطيع تغيير مقعده بعيداً عني، عندما نزل راكبان في مواجهة مساكن «عدره»، انتقل إلى مقعد أحدهما دون أن يودعني بنظرة أو بكلمة...

قالت نازك: «ارتحنا منه.»

قلت: «بل هو من ارتاح.»

تأملتني وفي عينيها نظرة استفزازية، وأخرجت لفافة تبغ، وبدأت تدخن، وتتأمل مساكن عدرة، كان الغبار غيمة رمادية فوق دمشق.

قال السائق: «سنمر عن طريق التل، الطريق في دوما مغلق.»

اتصلت عفراء... «هل وصلت؟»

- «في مدخل دمشق.»

- «بعد ساعة نلتقي في مقهى الهافانا؟»

- «سأحاول.»

كنت على عجل في إنهاء المكالمة، تصرف الرجل الذي كان يجلس قريباً مني قرأت فيه نوعاً من الغضب والحنق عليّ، وهذا ما آلمني كثيراً، تمنيت لو يمكنني أن أشرح له أنه أساء فهمي، وأن الجو عامة لا يسمح بالكلام .

في ساحة مشفى المواساة، توقف البولمان ونزل الركاب، كان الرجل ينزل بسرعة، أسرعت نحوه واعتذرت منه... «أنا أسف، لم أقصد تجاهل أسئلتك، أشعر بالتعب.»

لم يرد، ومشى بعيداً نحو سيارة أجرة... تحركت سريعاً...

سقطت قذيفة هاون على الساحة، وأصابت سيارة الأجرة، كان المشهد مؤلماً، ركضت نحو السيارة، صاح بنا شرطي توقفوا، تجاهلت إنذار الشرطي، رأيت وجه الرجل يفور دماً، فتح عينية المبللتين بالدم، ولم يغمضهما بعد ذلك...

هل يمشي الإنسان إلى حتفه سألت نفسي.

تتالت قذائف الهاون بالسقوط، بكت روحي على الرجل...

«هل جاء به قدره إلى هنا لمواجهة الموت؟»

جاءت سيارة مرسيدس وتوقفت قرب البولمان. اقتربت نازك، وأمسكت بيدي:

«السيارة لي، تعال معي.»

قلت: «أهي سيارتك؟»

«لا مرسلة إليّ.»

لم أسألها من أرسلها، وربما انتظرت أنا أسألها ، وعندما بقيت صامتاً ، قالت: «إنها من السيد رمزي محمد، هل تعرفه؟»

قلت : «هو أشهر من نار على علم.»

قالت: «صديق قديم، تعال نزوره معاً.»

«ليس لدي وقت.»

مشيت نحو سيارة أجرة متوقفة، وقلت للسائق: مجلس الشعب.

كانت نازك تتأملني وفي عينيها غضب، قلت ربما لأنني تجاهلت دعوتها، ولعدم اكتراثي بها طوال الطريق، تذكرت ما قرأته لكاتب فرنسي يقول النص... «احذر غضب المرأة إن تجاهلتها، لا تعلم متى تنفجر في وجهك، توقع ذلك في أي وقت.»

سقطت قذيفة هاون في دوار الجمارك في هذه اللحظة.

قال السائق: «وضع دمشق اليوم غير طبيعي.»

رنّ هاتفي، كان اتصال من زوجتي فاطمة، سألتني: «هل أنت بخير؟»

«نعم.»

«الجزيرة تبث أخبار تفجيرات في دمشق.»

«دمشق بخير.»

«أنا قلقة.»

* * *

أخبرني أمين المجلس بوجود رسالة ليّ «من فنزويلا.»

تسلمت الرسالة منه ...

وكنت متلهفاً لمعرفة ما كتبته جويل، هذه المرأة تستيقظ في روحي بعد سنوات طويلة، بالتأكيد ليس ما يجري استيقاظاً للحب، استيقاظاً للذاكرة كما أطلقت عليه عفراء ولكنها حذرتني... «لا تدع رسائلها تصيبك بالندم، ما حدث حدث، كلنا أبناء ذاكرة مشتعلة.»

فتحت الرسالة بلهفة، ولاحظ أمين المجلس لهفتي، قال: «أهي من الرئيس تشافيز؟» مازحته... «أهم من الرئيس تشافيز.» قال: «إذا رسالة حب؟»

- «يعني.»

ثمة صورة فوتوغرافية بالأسود والأبيض تضمني أنا وجويل أمام تمثال أبي فراس. تنفتح ذاكرتي وأنا أتأمل الصورة، أذكر... كان المساء صيفياً ونحن ندخل الحديقة العامة بحلب من جهة الشرق، وقفنا أمام تمثال أبي فراس، كانت جويل مصرة دوماً على الوقوف أمام تمثال أبي فراس لتتأمله، وكانت تقول: «أبو فراس يشعرني بوجوده .»

اقترب مصور الحديقة، وسألنا: «أتريدان صورة؟»

قالت جويل: «نعم.»

ثم ألقت يدها على كتفي، وضحكت... «قدم لأمك صورتنا لترى عروسة ابنها، هل تفعلها؟»

«ولم ...لا؟!»

كان الفرح يبهج صوت جويل، قال المصور: اقتربا أكثر من بعضكما بعضاً.

لاحظت جويل ارتباكي، شدتني نحوها... «اخرج من خجلك القروي.»

كانت سعادتي وأنا التصق بها، أصابعها تتشابك بأصابعي.

وعندما انتهى المصور من التقاط الصورة، وقفت في مواجهتي، وسألتني:

- «وسيم ، هل تحبني؟»

- «سؤال قديم.»

- «أريد جوابه أن يدق دوماً في روحي كدقات ساعتي، ألا تتوقف الساعة إن توقفت دقاتها؟»

- «نعم.»

- «حاول دائما أن تعلن حبك لي.»

رحت أقرأ ما كتبته في رسالة مرفقة بالصورة :

«وسيم ... هل تذكر يوم التقط المصور تلك الصورة...

منذ زمان طويل لم أرها، يوم حدثتني ابنتي عنك أخرجتها من أدراجي وأخرجت معها حكايتنا من أدراج الذاكرة، ورحت استعرض الزمن وكأن كل شيء حدث البارحة. ليس لأنني ما زلت أعشقك، لأنك الوحيد في ذاكرتي من الماضي.

عرضت الصورة على أولادي... وحكيت لهم عنك، قلت لهم:

«هذا القروي كان نقياً... كندى الصباح. أظنك... ما زلت نقياً.

سأعود يوما إلى حلب... ونزورها معاً ونزور قريتك التي حرمتني من زيارتها. سأقول لأمك إن كانت لا تزال على قيد الحياة، أم أنها غادرتها كأمي... «ها أنذا جويل». وسأخبر أولادك وزوجتك أنني جويل لم يعد ثمة ما يخيفهم من امرأة أحبتك يوماً... وإن كنا في مجتمع شرقي نحاسب فيه حتى على الماضي، وعلى محتويات ذاكرتنا، وعلى همسنا، وعلى النوايا... الزمن مشى

بنا نحو الأحفاد... في زمن الأحفاد... كل شيء لهم... القلب والروح والأحلام والحكايات.

الأخبار تقول إن الكفرة يحرقون كل شيء...

أبكتني مشاهد الدمار في حلب على التلفاز ...

لم يخطر في بالي يوماً أن يكون في سورية قتلة بهذا الإجرام...

لا أصدق ما يحصل، أقول لهم هنا عندما يسألونني عما يحدث، وهل يمكن أن يفعل إنسان بوطنه هكذا؟... «هؤلاء ليسوا سوريين.»

وأشعر أنني مهزومة ومصابة باتهاماتهم في روحي وكرامتي وجذوري...

أعصابنا هنا كسوريين لا تحتمل ما يجري...

«يشفقون علينا، وكأننا في عتمة، كمن سقط فجأة في قاع بئر.»

راحت الرسالة تفرش أمامي أحزاناً جديدة... مضافة إلى أحزاني، وكان من الصعب عليّ التنفس، تخيلت دمشق تحت قبة من الياسمين الباكي عطراً، ودماً، ودموعاً، وصرخات أطفال، ووجعاً.

رن هاتفي، جاءني صوت سيدة «السيد وسيم.»

- «نعم.»

- «هنا مكتب السيد رمزي يريد التحدث معك.»

جاءني صوت رمزي خشناً وحاداً، وفيه بحة قسوة «سيد وسيم مرحباً.»

«أهلاً.»

«أنا والسيدة نازك نتحدث عنك، ما رأيك أن نشرب القهوة معاً في مكتبي.»

لم يكن من السهل رفض الدعوة، فالرجل سيعتبر الرفض تحدياً له، وربما سيعتبرها إهانة، كان الرفيق عامر يقول: «هؤلاء ينكسرون بسرعة، وغضبهم لا ينطفئ إلا بإذلالك.»

قلت... «اتشرف، وقتي الآن ضيق، ومرتبط مع آخرين هم بانتظاري.»

«يعني أنك ترفض؟»

«أبداً.»

جاءني صوت نازك «وسيم، لك عندنا مفاجأة.»

- «خير؟»

«تعال، وسيخبرك السيد رمزي.»

كان صوت نازك يشعرني بالاستفزاز، اعتذرت :

«لدي موعد، ولا أستطيع تأجيله.»

- «نلتقي مساء في فندق الشيراتون، سأنتظرك في السادسة.»

- «سأحاول.»

- «لك معي عرض سيغير حياتك.»

- «لا أريد عروضاً ، أنا مصاب بالفتور.»

ضحكت «... كل شيء أصابه الفتور؟!»

واستمرت بضحكتها التي راحت تستفزني، قلت: نعم... كل شيء.

* * *

مساء لم أذهب إلى الموعد مع نازك...

جاءني اتصالها... «أنا انتظرك.»

- «لا أستطيع.»

رمزي حدثني عن رغبته بأن تتسلم مكاناً مميزاً، وأنا من قام بتزكيتك.

«لا أريد شيئاً.»

قالت... «أنت... »

وأغلقت الهاتف...

سألتني عفراء: لماذا تضحك بعد المكالمة؟

قلت: «لأن شر البلية ما يضحك.»

ارتفعت أصوات انفجارات في أحياء المزة، والشيخ سعد و٨٦ مزة، وسقطت قذائف في دوار الشيراتون، قلت... «الحمد لله أنني لم أذهب للقاء نازك ، جاءني صوت نازك على الهاتف «وسيم، أنا سأعود إلى البلد صباحاً، هل تسافر معي؟»

- «ولماذا عودتك السريعة؟»

- «الحياة هنا لا تطاق.»

- «لا أريد السفر الآن.»

- «هل نلتقي في البلد بعد عودتك؟»

- «نتحدث.»

- «وسيم لا تكن جلفاً معي، كثيرون يتمنون دعوتي هذه.»

ارتفع مستوى الانفعال لدي، لم تكن عفراء تدري مع من أتكلم، ولكنها أشارت لي بيدها ألا أنفعل، وأن أجيب بهدوء، ابتسمت، وقلت... «أنا أتدلل.»

اتسعت ضحكتها... «أتمنى أن يكون الأمر كذلك.»

-٢١-

لم ينقطع فؤاد عن ممارسة المشي الصباحي على الكورنيش البحري، على الرغم من تخوف الناس في المدينة من عمل إرهابي يستهدف الكورنيش... يقول لي كلما التقينا «لم يترك الزمن لي صديقاً سوى البحر...»

وأسأله: «وأنا؟»

يحتضنني... «ولو!! أنت أخي...»

ويروي قلق زوجته، ويقول في النهاية ساخراً: «ما الذي يجعلنا حريصين على استمرار حياتنا هذه.»

لا حلم عندي بتسلم موقع رسمي، ولا بالعثور على كنز، حتى أخي أحمد يرفضني أخاً، قال لزوجتي عندما تمنت عليه أن يقوم بتسليمي إدارة أحد مشروعاته الاقتصادية هنا في الساحل نظراً لسوء حالتنا مادياً: ليس أخي ولا أعترف به. تصوّر، يا رجل

أخي من أمي وأبي لا يعترف بي لأنه غني وأنا فقير، كيف يكون الفقراء والأغنياء في حزب واحد، حتى في وطن واحد.

كانت أسئلة فؤاد هي أسئلتي التي أخبئها في رأسي خلف ألف جدار وجدار...

في الآونة الأخيرة سافرت مرات إلى دمشق.

ثمة أسئلة وأجوبة حول ما حدث من حوارات خلال سفري في البولمان يوم كانت تجلس إلى جانبي السيدة نازك... يوم ذاك دارت حوارات حول الوطن، وكنت أشبه بالصامت. لم يقل المحقق من وراء ما يحدث، كنت على يقين أن «نازك» وراء ذلك، قالت لي عفراء عندما أخبرتها بما يحدث... «هذه النوعية من النساء إن لم تستجب لرغباتها النفسية أو الجسدية تكون جاهزة لفعل أي شيء في الواقع.»

لم استجب للقاء نازك في دمشق، حتى وبعد عودتنا من دمشق، دعتني لرؤيتها أينما شئت... «في الساحل معك من بيتي إلى كسب، في أي مكان تريده نلتقي، لدي رغبة أن نكون أصدقاء، وأكثر من أصدقاء.»

رفضت... قالت: «هذا العرض يتمناه كثيرون أهم منك بألف مرة...»

قلت: «يا أختي ، أعرف، أنا اليوم في عزلة.»

ردت بانزعاج: «أنت تهينني.»

قلت لفؤاد ما يحصل، راح يضحك... «قل لها أرشح لك زميلي فؤاد أهذا هو الحل... »

الحل أن توافقها، عينها عليك، ولن تتركك بحالك حتى تستسلم لها... عندما جاءت إلى بيتنا بذريعة السؤال عن مشروع كتاب تفكر بنشره، قلت لفاطمة... «أخبريها أنني لست موجوداً.»

قالت لفاطمة: «هو يهرب مني، سأجعله يندم...»

يومذاك لم تحاورها فاطمة لكنها قالت لها... «ليس ثمة ما يجعل زوجي نادماً.»

وعندما يئست من لقائي، تهددتني على الهاتف... «أنت تلعب بروحك.» كنت على يقين أن كثيرين سيستمعون لها، لكنني لم أكن أعتقد أن هؤلاء سيتجاوزون تاريخي في ظروف كهذه من أجل امرأة.

قلت لأحدهم: «أنتم تقتلون الشرفاء.

لكل واحد في البلد تاريخ، افتحوا تاريخ الناس...»

ردّ بعصبية: «لا نطلب من أحد أن يعلمنا شغلنا.»

قالت فاطمة: «لا يعرف الإنسان بيد من يقتل، ما الذي جنيته من كل ما تكتبه عن الوطن؟»

كنت أعرف أنها تتكلم من قلقها عليّ، ومن إحساسها بالظلم.

خطر لي رؤية فؤاد.

* * *

كان الصباح في أوله والشمس لم تشرق بعد جيداً على المدينة، وثمة نسمة خريفية باردة تهب من الجبال الشرقية البعيدة، فتنساب على الموج بهدوء، ليصبح كتجعيدة شعر فتاة.

بدا فؤاد متعباً، كان يمشي بخطوات ثقيلة، وفي عينيه ذبول، تعطيه لحيته الطويلة التي يوشيها الشيب عمراً إضافياً على عمره ، مازحته: «هل بت داعشياً؟»

تأملني بعينين عاتبتين وتعبتين... وظل صامتاً، هززته من كتفيه، وقبلته:

«فؤاد ما بك.»

نزفت عيناه دمعتين انحدرتا على خده ثم عبرتا بين شعيرات ذقنه إلى عنقه.

أحسست بقلبي يعتصر حزناً: «أتبكي، فؤاد... ماذا حصل؟...»

«ألم تسمع باستشهاد ولدي يوسف، هل بلغ بك الحقد أن تتجاهل شهادة شهيد كائناً من يكون... وأنت من يتحدث عن الوطن... أم أنك بت كغيرك تنافق الوطن؟»

صدمني الخبر، أقسمت له أنني لم أسمع باستشهاده.

قال: لو كان ابن مسؤول لسمعت به ، قلت: فؤاد... أنت تعرف، لست أنا من يتهم بهذا.

كان يوسف أكبر أولاده، درس مهندساً على نفقة الجيش، وبعد تخرجه التحق بوحدة عسكرية مقاتله على أطراف دمشق، ووصل إلى رتبة عقيد، وفي معركة مع المسلحين في «جوبر» تعرّض لطلقة من قنّاص.

قلت: «لنشرب القهوة في المقهى القريب ونتابع حديثنا...»

قال: «لا، لا يجوز لي أن أجلس في مقهى ودم ابني لم يجف بعد.»

- «معك حق.»

جلسنا معاً على مقعد قبالة البحر، كانت النوارس تزقو وهي تطير فوق الماء على ارتفاع منخفض، كنت متألماً لخبر استشهاد يوسف، ومرتبكاً، سألته: «كيف حدث استشهاد يوسف؟»

قال: «لا تنكأ جراحي... كل حياتي مؤلمة.»

تركت المكتب، كان معك حق يوم لمتني على وجودي مع أناس من معدن غير معدني، الأخ لا يعترف بأخوة أخيه عندما تكبر بينهما الفجوة المادية، فكيف بالغرباء... الحرب على الوطن كشفت معادن الناس، وهزال الحياة الأخلاقية والاجتماعية في المجتمع.

وضحك ضحكة مهزومة « تركوني وأخذوا كل شيء... كل شيء، وابنتي عادت إلى بيتنا مطلقة، هنا وجعي... أشعر أنني على حافة الانفجار...

هل تعتقد أن الله عاقبني بيوسف لأنني مشيت في طريقهم؟»

«لا، يا رجل، قل إن الله أكرمني باستشهاده، وسيغفر لي بسببه.»

سألني: «هل رأيت صاحبك طاهر البارحة على قناة العربية، وكان معه نادر... صاحبك الوزير السابق...، لماذا يصيرون في

الجانب الآخر للوطن عندما تنتهي مهماتهم وعندما يكونون في موقع المسؤولية يفرضون علينا قناعتهم؟»

«لا... لم أرهما.. ما بهما؟»

«رأيتهما أنا، كان طاهر يتكلم بلغة حاقدة على الوطن... بربك أليس هذا ما يضحك، طاهر يتكلم عن الوطن والوطنية والسلوك؟!.

ونادر يتحدث عن النقاء، وهو هارب من وجه العدالة بملايين الليرات؟!»

- «هذا متوقع.»

- «على العربية كانوا ثواراً.»

«وفي نظر شعبنا خونة.»

تنهد فؤاد بحزن... «ضاعت المصطلحات... والموازين باتت مقلوبة... ماذا تفعلون كرفاق لوقف هذا التسونامي الذي يتهدد وجودنا؟»

لم أكن راغباً بالحوار مع فؤاد وهو في ذروة تأجج غضبه وحزنه.

قلت: «دعنا نؤجل الحوار، موضوع يوسف يوجعني مثلك.»

* * *

-٢٢-

كان شهر حزيران من عام ٢٠١٥ متفجراً.

الأخبار تتحدث أن أمريكا أقامت «غرفة عمليات« في عمان بوجود عسكري إسرائيلي سعودي أمريكي أردني، وثمة غرفة أخرى في «غازي عنتاب» بتركيا. وتصاعدت أعمال الإرهاب في كل جبهات القتال، وبخاصة في الجنوب السوري «حوران والقنيطرة» وتزود الإرهابيون بأسلحة جديدة ومتطورة إسرائيلية أمريكية وقام الطيران الإسرائيلي بدعم المجموعات الإرهابية على امتداد الجولان، وضرب بعض المواقع السورية، واستهدف سيارة للمقاومة ذهب فيها ابن الشهيد عماد مغنية ومعه ضابط من الحرس الثوري الإيراني.

وكان قد نجح الجيش السوري بصد تلك الهجمات في أماكن عديدة، إلا أن المهاجمين سيطروا على مساحات من الجولان

وحوران، وعلى معبر «نصيب» الحدودي مع الأردن، وعلى مدينة بصرى، وتوسعوا في «اللجاة» باتجاه السويداء... وتمت مهاجمة مطار «الثعلة»... لكن القوات السورية بالتعاون مع أهل السويداء صدوا الهجوم عن المطار وأفشلوه.

وفي الشمال تم احتلال قسم كبير من محافظة الحسكة، وأحياء من مدينة الحسكة ومساحات من محافظة الرقة وفي غرب حلب...

وتم احتلال أريحا وإدلب وجسر الشغور وأقسام من سهل الغاب الغربي الشمالي، إضافة إلى احتلال «القريتين» في محافظة حمص، واحتلال تدمر... واستيلاء الإرهابيين على مطار «أبو الضهور» مستفيدين من العاصفة الرملية التي حجبت الرؤية لعدة أيام، وخلال تلك الحالة الجوية الطارئة جرت محاولات للتقدم نحو دمشق... ونحو اللاذقية من جهة ربيعة وسلمى.

تسألني جويل هاتفياً: «هل تتجه الأمور نحو الهزيمة؟»

كان الإعلام المعادي يسوّق فكرة سقوط النظام وأن دمشق في وضع صعب، فالطيران الإسرائيلي قصف جمرايا وقاسيون لمساعدة المسلحين المتقدمين نحو مركز العاصمة، لهذا لم استغرب

خوف أسئلتها القلقة، كان أغلب السوريين مصدومين وخائفين من تطور الأحداث... أجبتها:

«نحن بخير.»

قالت: «أرجوك قل الحقيقة، قلبي يقول إنكم في خطر... البارحة رأيتك في الحلم، كنت جريحاً، وملقى على الأرض وتتأوه، أمسكت بيدك استنهضك، مشيت بك إلى صنبور ماء، كنت عطشاً ومتعباً، وعلى شفتيك أغنية لم أفهم شيئاً من كلماتها، أكانت بكائية أم أغنية عاطفية أو حالة هذيان.

أقلقني الحلم... أينطبق الحلم على حال الوطن أم عليك؟»

حقيقة...

أثارني حلم جويل، أهو قراءة لأحاسيس تعيشها... أم نبوءة؟

كان الوجع يشتعل على اتساع مدن وقرى الوطن كحريق في صيف ملتهب.

قالت جويل محتجة على قناعتها أنني أخفي عنها الحقيقة بعبارات مقتضبة:

- «لماذا تجيب باقتضاب، ولا تقدم لي صورة للواقع، أمن أجل ألا تزعجني؟»

«يقولون إن ثلاثة أرباع مدينة حلب باتت في أيديهم، بالتأكيد سيصلون إلى تمثال أبي فراس الحمداني، ويحطمونه كما حطموا تمثال المعري، وأبي تمام، ومقام عمار بن ياسر... هؤلاء قتلة.»

مازحتها... «هل تمثال أبي فراس المشكلة؟»

ردت بعصبية: «أهذا هو فهمك لحديثي... أنت تريد إخفاء الحقيقة.»

حقيقة...

كنت في حيرة... ماذا أقول لها؟.

تذكرت قول الشاعر هوراس: «ماذا لوقلت الحقيقة باكياً؟»

قلت: «سأحدثك لاحقاً، لدي الآن ظرف خاص.»

في الواقع كنت أهرب من وجع الحوار، كتبت إليها رسالة عبر صفحتها على «فيس بوك»... عن آخر رواية قرأتها بعنوان «وشم امرأة».

الوطن في الرواية موجوع...

ما أشقى من يحاول أن يكتب عن امرأة تسكنه، وعن وطن في زمن الوجع!

«حفيدتي جولي صديقتي في زمن الحرب، في وجهي دائماً، عمرها لا يتجاوز السنوات الأربعة، تسألني كلما مرّ موكب شهيد من أمام بيتنا:

«لماذا يسقط الشهداء؟»

هي لا تعرف بعد أننا نخوض حرباً في وجه الإرهاب.

البارحة ذهبت مع زوجتي وجولي بالسيارة في مشوار، كان الجو حاراً يغري بالتوجه إلى الأماكن الجبلية... ثمة لوحة كبيرة تضم صور شهداء في مدخل كل قرية نمر فيها، كنت أشعر أن عيون الشهداء تتطلع إلينا.

أحد الشهداء... أعرفه وأعرف أهله.

يوم التحق بالجيش اعترض والداه على التحاقه بالجيش، قال لهم:

«سأدافع عن وجودكما.»

يوم استشهد حضرت دفنه، رأيت أمه تزغرد ...

أبكتني زغاريدها... وأبكاني موكب التشييع، وأبكاني وجه الشهيد المفتوح على الحضور وهو يوضع في القبر... وأبكتني أسئلة حفيدتي جولي.

«لماذا مات جعفر؟»

«أوف، لماذا مات جعفر، وآخرون... جعفر يقول قبل موته إنه يدافع عن وجود والديه في وطن يذبح.»

مرّ موكب شهيد ونحن في أول قرية كرم الجبل، قرية زوجتي فاطمة...

تأملت جولي لوحة في مدخل القرية تزدحم بصور الشهداء، قالت وكأنها تقرأ ما أفكر به... «سيحتاجون إلى لوحة جديدة لصورة الشهيد الجديد.»

كنت على يقين أن كل اللوحات التي تتصدر مداخل القرى تحتاج إلى لوحات جديدة، في كل يوم شهداء، كل قرية اليوم تتفاخر بعدد شهدائها، وبحكاياتهم، وبطولاتهم... وباللوحات التي تتصدر مدخلها.

قالت زوجتي: دعنا نعود إلى البيت...

كيف تقوى أمهات الشهداء على رحيل أبنائهن...؟

جويل... لا أعرف لماذا أكتب لك ذلك،

لا أعرف اليوم... إن كنت متفائلاً، أو متشائماً.

هل تذكرين يوم كنت تحدثينني عن أبي فراس، وكنت أمازحك وأضحك من كلامك، اليوم أتذكر كل كلمة قلتها لي... أبو فراس في رمزيته يعني لي التاريخ...

القتلة اليوم لا يقتلون الحاضر وحسب وإنما يقتلون التاريخ أيضاً.

تصوري أنهم ذبحوا أبا العلاء المعري، ذبحوه من عنقه، وقطّعوا أوصاله...

نحن أمام نوع من القتلة لم يعرفهم التاريخ من قبل.»

-٢٣-

كان شهر أيلول من عام ٢٠١٥ جافاً كأحلامنا...

زرت مصيف صلنفة للكشف على شقة امتلكناها بعد جهد جهيد في جمعية الصحفيين، بدت صلنفة كئيبة خاوية من الفرح والناس، ثمة قذائف تنطلق بين الحين والحين من الجهة الغربية الشمالية، يقولون إنها قادمة من بلدة «سلمى» التي يحتلها المسلحون الشيشانيون والأنغور.

كانت نوافذ منازل مدينة صلنفة تشي بحالها، أغلب المنازل دون نوافذ،

قال لي صاحب محل تجاري صغير يجلس في باب متجره ينتظر زبونا ليشتري: «صلنفة سرقت، ونهبت.»

«من فعل ذلك؟»

لم يجبني، ربما كان خائفاً، وربما كان أحد الذين مارسوا السرقة، وربما كان يشعر بالوجع على صلنفة التي فقدت أمنها.

وجدت باب شقتي مكسوراً...

وكل ما في الشقة من أغراض وبياضات مفقود، حتى أزرار الكهرباء والأشرطة الكهربائية كانت مسحوبة من الجدران. سألت رجلا يسكن في منزل مجاور: «هل جاء الدواعش إلى هنا؟» ضحك: «نعم، دواعش الداخل.»

قلت لمسؤول الأمن في المدينة الجالس وراء طاولة أنيقة، عليها فاز من الكريستال، وحاملة أوراق وأقلام، ويقف في بابه رجلان ضخمان يحمل كل منهما بندقية، تتجه فوهتها نحو صدر القادم إلى مكتب المسؤول الأمني... «أريد أن أبلغ عن حادث سرقة شقة.»

ضحك... «احمد الله أنها في المال وليست في العيال.»

هززت رأسي ساخراً. سألني وهو يبرم جسده على كرسي متحرك :

- «ألم يعجبك قولي؟»

- «أعجبني.»

- «خير.»

- أريد أن أسألك: «كيف خرجت منهوبات صلنفة من البلدة؟»

تأملني بعينين حادتين: «تتهمنا؟»

صراحة...

أحسست بالخوف، لم ننته بعد من الأسئلة بسبب نازك، كل شيء في هذا الزمن ممكن حدوثه، سمعت انفجار لقذائف، ثمّة رجل كان يقول لمن حوله: «سقطت عند مدخل صلنفة الشمالي...»

راح الناس يتراكضون إلى داخل المنازل، وبقيت في مكاني أتأمل الدخان المتصاعد من مكان سقوط القذائف، لم أكن خائفاً، ولا مرتبكاً، ما حصل أن مئات الأسئلة راحت تتماوج في رأسي، وتعود من دون أجوبة.

تسألني سيدة وأنا أفتح باب سيارتي: «هل أنت ذاهب إلى اللاذقية؟»

- «نعم.»

- «أتأخذني معك؟»

- «تفضلي.»

لم أنظر في وجه المرأة، كان قلبي أسود كمنفضة أعقاب السجائر، كنت أفكر بالمدينة المنهوبة، وبالوطن المحترق، وبأسئلة جويل وبكاء فؤاد ، وأحزان عفراء .

صعدت إلى جانبي، أمسكت بلفافة تبغ، وسألتني «هل تدخن؟»

«لا، ولا أسمح بالتدخين في السيارة.»

أعادت اللفافة إلى علبة التبغ... «معك حق.»

ونحن نخرج من بلدة صلنفة، سألتني: «ألست وسيم الجبلاوي؟»

- «نعم.»

- «رأيتك على التلفاز مرات، لكنك لا تقول كل ما تود قوله، أشعر أنك تصل إلى نقطة ما... وتتوقف، هل تخاف من قول الحقيقة؟»

تذكرت نازك، اختصرت إجابتي بكلمة واحدة: «ربما.»

قالت: «هل بإمكاني دعوتك إلى فنجان قهوة على الشاطئ عندما نصل اللاذقية؟»

قلت: «أعتذر، ذاهب لإلقاء محاضرة.»

- «هل أنا مدعوة؟»

- «يسعدني حضورك.»

- «هي المرة الأولى التي سأحضر فيها محاضرة.»

* * *

كانت أسئلة الحضور تتحول إلى «كلاليب» معقوفة وكأنها مخالب تمسك بروحي، فتوجعها، تنتزع الأسئلة بعضاً من وجعي، وكأنها تريد أن تعثر على دمي، أو لتعتصر بعض الأمل في شرايين أحزانهم.

أحاول خلق مزيج بين أحلامنا القادمة، ووجودنا.

قالت المرأة وهي تودعني بعد المحاضرة: «وأنت تتحدث... كنت أشعر بك أشبه بشجرة أوجعتها العاصفة، وهي تحاول أن تظل واقفة، إلى هذه الدرجة تريد أن تشعرنا بصمودك؟»

كان وصف المرأة دقيقاً...

سألتني: «هل يمكنني أن أحصل على رقم هاتفك؟»

عادة... أخشى التواصل مع النساء اللواتي يطلعن فجأة في وجهي...

قلت: ليس لدي رقم.

قالت: في الطريق سمعتك تتحدث بهاتفك.

«هو رقم زوجتي.»

تتأملني: «حتى الكتاب يكذبون، ماذا حدث في هذا البلد.»

- «الكتاب... بشر كغيرهم.»

- «لا، هم اليوم أقل من البشر لأنهم تخلوا عن دورهم.»

- «ليس الجميع.»

- «اتهم الجميع.»

فوجئت بالرفيق عامر يقف خلفي. قال: «لماذا تحاور تلك المرأة؟»

قل: «وهل سمعت ما قالت؟»

«نعم، معها حق، الكتاب تخلوا عن دورهم... المهم... جئت لحضور محاضرتك، أظنني فهمت موعد المحاضرة خطأً، فتأخرت... كنت فظاً معها.»

قلت: «عملت بتوجهاتك، أتذكر يوم قلت لي اثنان يسقطان المناضل: «المال والنساء.»

راح يضحك... «تتغير الأحكام بتغيّر الأزمان.»

قلت: «أهي قناعتك؟»

قال: «لا تأخذ بقناعاتي فهي التي جعلتني في حالة مواجهة دائمة مع المتغير الخطأ.»

دعوته لشرب كأس شاي في المقهى الموجود في الطابق الأول.

قال... «نعم.»

في المقهى قلت له: «حدثني، كيف ترى الأمور؟»

ضحك... «هل كنت تعرف أنني كنت سأسألك السؤال نفسه. قل لي أنت كيف ترى الأمور؟»

قلت: يقول النفري «كلما اتسعت الرؤية ضاقت العبارة.»

ضحك: «أظنك هربت من السؤال.»

«أبداً، بحضورك لا كلام لي.»

اختصر عامر كل هذا الدفق الوطني بعبارة واحدة:

«نحن مجبرون على التفاؤل، والدفاع عن وجودنا في وطن.»

وأنا أتأمل وجه الرفيق عامر المتعب والمحروث بسنوات العمر الطويل وأيام السجن القاسية، وجدت نفسي أكتب في رأسي، وأحسست بدمعة تقف بين أجفاني، كنت أشعر أن الحياة متعبة، ولا جدوى من كل هذا الحماس لأفكار اعتنقناها، يبدو أن الرفيق عامر قرأ ما في رأسي، قال: «اطلب لنا قهوة من جديد.»

وتابع: «الحياة كالقهوة كلما انتهينا من رشف فنجان احتجنا إلى آخر، كن على الدوام قوياً ولا تنهزم، في السجن لم أفقد

الأمل بالخروج إلى الضوء، وعندما خرجت وجدت الوطن في مواجهة وجودية، وكان عليّ أن أحمل ما تبقى في جعبة حياة من سلاح، وأقاتل... الوطن هو الأهم.»

* * *

تتقدم العصابات الإرهابية في شمال اللاذقية، وتحرق القرى التي دخلتها بوحشية، وتقتل كثيراً من الرجال والنساء، وتقوم بسلق الأطفال في قدور أضرمت تحتها النار كفراخ دجاج .

يضج صوت فؤاد في رأسي منذ الصباح وأنا أفتح له باب منزلي:

- «هذا الوضع لا يحتمل، لماذا لا نتحول جميعنا إلى جنود، ولماذا لا تقوم الدولة بتقديم السلاح للمواطنين للدفاع عن أنفسهم؟»

«ليس الأمر بيدي.»

يتأملني بعينين مغرورقتين بالدمع... «أعرف كيف تقرأ ما يجري أيها الكاتب؟»

«لم أعد أعرف قراءة شيء.»

قال بنزق: «أنت تهرب من الإجابة، مكبّل بالالتزام السياسي، كلكم مكبلون بخطاب واحد، افتحوا عقولكم، وارفعوا أصواتكم، وقولوا للناس ما يحدث...»

«سلّحوا الناس للدفاع عن أنفسهم.»

كانت كل المؤشرات تشير إلى أن معركة اجتياح الساحل بدأت.

رئيس وزراء تركيا عبد الله غول يتهدد بتوسيع رقعة الحرب، واحتلال حلب، والوصول إلى قلب القرداحة مدينة الرئيس. ويخرج «رياض حجاب» على قناة أمريكية يتهدد الساحل بلغة طائفية .

قال فؤاد: «رياض حجاب... في غضون سنوات قليلة قفز من موقع إلى موقع، من رئيس اتحاد طلبة، إلى أمين فرع، إلى محافظ، ثم إلى محافظ في اللاذقية التي يتهدد أهلها، ثم إلى وزير زراعة، وبعد شهر... يصبح رئيساً لمجلس الوزراء، كيف حدث هذا... عقلي لا يستوعب.»

تذكرت لقائي الأول مع رياض حجاب في مكتبه باللاذقية، كنت مع مجموعة لتهنئته، لم أكن أعرفه من قبل، لكنه ناداني باسمي، سألته: «من أين تعرفني؟» قال... «أتابع ما تكتبه في

الصحف.» ثم انبرى يحدثنا عن الولاء للوطن وقائد الوطن، وأن علينا أن نواجه حتى التظاهرات بالرصاص، قال: «الرئيس رفض استعمال القوة، لو واجهنا القتلة بالدم كما فعلوا لما اتسعت دائرة النار.»

قال فؤاد: «أفكر بالالتحاق بقوات الدفاع الوطني، ما نفع جلوسي في البيت؟»

في الآونة الأخيرة، لاحظت تغيراً على تصرفاته، وطريقة كلامه، كان يقول عبارات غير مترابطة، وثمة قلق يسكن عينيه. أخبرتني زوجته... «فؤاد... تغيّر بعد استشهاد يوسف.»

راحت تبكي... «نحن في وضع صعب...أخوه أحمد تجاهلنا نعيش اليوم براتب فؤاد الضئيل، وبراتب استشهاد يوسف... وكل شيء ارتفع سعره.»

* * *

كانت قوات الإرهاب تتقدم في ريف حماه الشمالي...

وفي مناطق حلب، وحول الكليات العسكرية في الجنوب الغربي من حلب، بإشراف مباشر من غرفة عمليات «غازي عنتاب» التركية.

يوم أطل السيد حسن نصر الله على التلفاز، تحدث بثقة المقاوم، أنعش الأمل في الناس رغم حالة اليأس التي تخيِّم على الواقع، لأن الجميع لديهم الثقة بأنه لا يتكلم على طريقة المحلّلين السياسيين الذين أغرقوا الناس بعبارات التفاؤل الخيالية.

كنت كغيري أحبّ حديث هذا الرجل، عندما يتكلم، يتكلم بثقة، كثيرون في السياسة يفتقرون إلى الشفافية والعمق ودقة الرؤية عندما يتكلمون، سألني فؤاد بعد الخطاب: «ماذا فهمت من خطاب حسن نصر الله؟» قلت: «ثمة فجوة من الضياء تسطع.»

قال: «ولكن الأمور تسوء في أغلب الأماكن.»

قلت: «أنا أثق بتفاؤله.»

- «لننتظر.»

* * *

هاتفتني جويل: «وسيم، تعال إليّ في فنزويلا مع عائلتك.»

قلت: «ولمن نترك الوطن؟»

«أتترك نفسك للذبح؟»

حقيقة... كنت شديد القلق على نفسي وأهلي. حاولت الظهور أمامها بمظهر القوي، لهذا ضحكت ضحكة هاربة من الحزن... «جويل... لا تقلقي، الأمور سوف تتحسن، ونحن أقوياء.»

قالت: «أنت تحاول أن ترفع من معنوياتي.

أمريكا على الخط، وإسرائيل على الخط، والعربان على الخط، ستظل الأحداث كأرجوحة، تروح وتجيء، كما يقول رئيس فنزويلا «مادورو» هذا الرجل موجوع على سورية... وسيم... هل أنت حقيقة متفائل؟»

«نعم.»

«على ماذا تراهن؟»

«على وعي كثيرين، وشجاعة الجيش، وأصدقاء سورية.»

«هذا خطاب... فشلتم في استثماره.»

* * *

بمرور الوقت، وتفاقم الأحداث، بدأت فاطمة تعاني من وجع في الرأس.

قالت لي: «أنا متعبة، متعبة، وقلقة، أعرف أن الأحداث هي السبب.»

- قلت: «اتركي متابعة الأخبار.»

- «ألست مواطنة سورية...؟»

- «كلها أخبار موجعة.»

- «أأطمر رأسي في الرمل... لا أستطيع.»

بصعوبة... أقنعتها بزيارة الطبيب.

قالت للطبيب: «أنا اعرف سبب مرضي.»

قال لها الطبيب: لديك ارتفاع ضغط، أنت حسّاسة.

مازحتُ الطبيب: «هي تشعر بمسؤوليتها عن الوطن كله.»

قال الطبيب: «وأنت نقلت إليها عدوى الحساسية، انتبه إلى صحتك أيضاً، أمراض القلب والضغط كثيرة والأحداث هي السبب.»

أحزنني وجه فاطمة وهي تتلقى خبر مرضها...

أحسست أن كل شيء في وجهها وعينيها وصوتها مصاب بالوجع، وأنني أشبه بمن يعصف به تيار عاصف يهدده بالاقتلاع في أي لحظة .

رنّ هاتفي ، قلت: «عفراء على الخط.»

قالت فاطمة: «اذهب إليها أنا بخير.»

احتضنتها بذراعي: «دعينا نعود إلى البيت.»

في الطريق إلى البيت، قالت فاطمة:

«تعبت من الأحداث ومنك ومن عفراء وجويل والفيس بوك، ومن كل ما يحيط بي ثم تلفتت إليّ: «ماذا تريد عفراء؟»

تنهدت: «أنت، حقاً، قلقة من عفراء؟»

تركت رأسها على كتفي: «وسيم، أنا متأسفة، لا أعرف ما بي؟»

* * *

قالت عفراء: «أحببت الهروب لبعض الوقت من وجعي، والبكاء طويلاً على قبر خالد الذي رحل وترك لي عذاب أبنائه، هل كان هذا الرجل يعرف أن كل هذا الذي يحدث لي سيحدث، أتمنى اليوم لو كنت سبقته إلى الموت .»

دخلنا مقهى بحرياً، راحت تحدثني عن وجعها، خطر في بالي أن أصرخ في وجهها: «توقفي، تعبت منك ومن حكايات

حزنك، وحزن زوجتي، وحزن جويل، وحزن الوطن، أنا غارق في الحزن...»

أينما ذهبت حزن، أخبار موجعة، ودماء، وتفجيرات، وشهداء، وجرحى، ومواكب الموت لا تتوقف لكنني صمت... عفراء هي الأخرى منهارة ، لهذا بقيت أستمع إليها.

راحت تحدثني عن خالد ابنها الأصغر، قالت: «يريد مني ألفي دولار ليهاجر كغيره إلى أوروبا، وأنا لا أملك سوى راتبي الشهري، وتعويضات محمد عن بتر قدمه في الحرب... «هل أعطيه أموال ساق أخيه؟ مسعود وراء الأمر، ليلحقه بداعش، أو النصرة، أنا في جحيم، قل... كيف أتصرف؟»

قلت: «سأرتب لك أمر المبلغ من صديق.»

«لا... لا أريده أن يغادر، كيف للدولة منح هؤلاء الشباب جوازات سفر للخروج، أهي تمنحهم حق الهروب؟ على الدولة أن تمنع خروج أحد قبل سن الأربعين... نحن في حرب.»

ثمة رجال بذقون طويلة، يحيط بهم رجال يحملون بنادق رشاشة، راحوا يدخلون المقهى، مروا من أمامنا، كانت نظراتهم علينا حادة، وفيها كثير من الاستفزاز والتحدي، حتى أن أحدهم

ركل بقدمه كرسياً حول طاولتنا، وشتم صاحب المقهى، ركض إليه النادل يعتذر، دفع بالنادل بقوة بعيداً عنه «اعرفوا كيف تضعون الكراسي.»

جلسوا حول طاولة مجاورة لطاولتنا، قالت عفراء: «من هؤلاء، هل هؤلاء من الدواعش، أم من المجانين؟»

قلت: «دعينا نخرج، الخروج أفضل، ولا تنظري إليهم.»

- «لكنهم ينظرون نحونا، هل تعرفهم ؟»

- «لا.»

نهضنا، قال أحدهم بصوت عال موجهاً كلامه إلينا:

«يبدو أن وجودنا لم يعجبهما.»

«قال آخر وهو ينهض: «أنا ذاهب لأسألهما إن كنا لا نعجبهما.»

امسك به زميله: «اتركهما بحالهما.»

جلجلت ضحكاتهم في المقهى.

قالت عفراء: «دمي يفور... ألا تكفينا عصابات القتل؟»

افترقنا في قلب المدينة ، قالت: «سأذهب لزيارة قبر خالد.»

«وأنا سأعود إلى البيت، فاطمة متعبة.»

تنهدت عفراء: «من في الوطن ليس متعباً؟»

ووقفت قبالتي، وكفها في كفي... «كيف وصلنا إلى هذه الحالة؟ بتنا نتمنى الموت.»

قلت: «الموت... هذا هزيمة.»

راحت تتأملني بعينين متعبتين وحزينتين، ثم قالت: «أتمنى أن تكون قوياً كما تتظاهر، أو كما تكتب، تظاهرك بالقوة هو ما يخيفني عليك.»

ضحكت... «عمر الشقي بقي.»

* * *

حقيقة... كانت آلاف الإرهابيين المسلحين يتدفقون من تركيا باتجاه قرى اللاذقية، ومدينة كسب، وقسطل المعاف، والسرايا، وربيعة، وكنسبا... وحتى مشارف كفرية كان عدوان تركي معلن كما قالت وكالات الأنباء، واستولوا على المركز الحدودي في كسب، وأصبح شاطئ البسيط مهدداً، وانهمرت القذائف من مواقع الإرهابيين في بلدة ربيعة، وبلدة سلمى على أحياء اللاذقية، وبعضها طال المنطقة المحيطة بمطار حميميم في جبلة، ومحيط القرداحة.

وباتت المنطقة في وضع أكثر خطورة.

وفي الثلث الأخير من أيلول...

سيطر الإرهابيون على كامل محافظة إدلب... باستثناء بلدتي «كفريا والفوعة» اللتين قاومتا هجوم الإرهابيين... ودخلوا حقول النفط في حقل الشاعر ومنطقة تدمر في حمص، وقطعوا الطريق إلى حلب في منطقة أثريا قرب مدينة السلمية، وبات مطار دير الزور العسكري محاصراً، وتحت قصف دائم بغية احتلاله كما حدث من قبل على مطار الطبقة.

سألني فؤاد: «ماذا يحدث... مطار دير الزور مهدد والطريق إلى حلب مهدد و الساحل مهدد؟»

قلت: «هذه أسئلة مفزوعة.»

ردّ بعصبية: «وأنت... ألست قلقاً؟»

- «لا.»

- «أنت قلق، وتتظاهر بالتماسك، لا تريد أن يقول قراؤك إنك مهزوم.»

- «المهزوم لا يستطيع أن يخدم الوطن.»

- «والحل؟»

* * *

كان الرئيس الروسي يتهيأ لإلقاء خطاب أمام الأمم المتحدة...

سألتني عفراء على الهاتف كعادتها في كل صباح: «شو الأخبار، طمني.»

«بخير.»

«هل تكذب عليّ أم على نفسك ...

لم أشعر بهذا القلق من قبل كما أشعر الآن... هل تظن أن الروس سيخذلوننا...

بوتين سيلقي اليوم خطابه في مجلس الأمن، هل سيعلن انضمامه إلى جانب سورية في محاربة الإرهاب، أو يفاوض لتحقيق مكاسب»

قلت: «في حدود ما أعلم... الطائرات الروسية وصلت إلى مطار حميميم، وهذا مؤشر على أن أمراً ما سيحصل، ولن يكون سلبياً.»

كان زهران علوش قائد جيش «فتح الإسلام» يهدد باحتلال العاصمة، وراح على الإعلام يستعرض عرضاً عسكرياً لقواته في «الغوطة» في تحد صارخ للدولة، معلناً أنه موجود وبات خطاب السعودية وتركيا وقطر أكثر عدوانية، وبدا كل شيء عند منعطف مجهول تماماً.

بدا الرئيس بوتين في خطابه أمام الأمم المتحدة، وكأنه يرسل رسائل تحذير إلى الغرب، ومؤكداً أن روسيا تزمع القيام بعمل ما في سورية، لأنها موجودة، ولن تعيش على ضفاف الأحداث.

في اليوم نفسه انطلقت الطائرات الروسية، رأيتها تعبر من فوق بيتنا...

قالت فاطمة : صوتها يصم الآذان.

قلت: ولكنه يفرح القلب، الروس دخلوا الحرب.

راحت فاطمة تبتسم، ولوّحت للطائرات العابرة بيدها، ثم أخبرتني أنها اليوم ستكون بخير، ودعتني إلى فنجان قهوة على سطح المنزل... «نشرب القهوة، ونراقب عبور الطائرات.»

- «ولكن هديرها قوي.»

«هديرها القوي يطرد الخوف الذي كان يسكننا.»

رحنا نشرب القهوة، ونتأمل عبور الطائرات الروسية الذاهبة، والعائدة ، اتصل فؤاد... «الروس يحتلوننا.»

- «كيف؟»

- «كيف تسمي وجودهم في قاعدة عسكرية سورية؟»

قلت: «هذا غباء مررته إلى ذهنك محطة الجزيرة.»

قال بعصبية: «هل أنا غبي؟»

«نعم، لأن الدواعش والنصرة وبقية الفصائل يتهيؤون لاحتلال الوطن كله، والروس جاؤوا لمساعدتنا، لماذا لا تقول ذلك؟»

ضحك فؤاد ... «الصراحة، كنت غبياً.»

قلت: «الصراحة، ثمة كثيرون قالوا ما قلته الآن.»

* * *

كانت الساعة تقارب العاشرة صباحاً...

عندما دوّى صوت انفجار عند مدخل مدينة جبلة الشرقي...

أسرعت إلى «الفراندا» أستطلع ما يجري، ثمة عمود ضخم من الدخان الأسود يتصاعد عاليا وينفرش بيد الهواء الغربي نحو الشرق، لم أحدد بالضبط مكان الانفجار، قلت لزوجتي: «ربما يكون الانفجار على الحاجز العسكري أو محطة الكهرباء.» قالت:أظنه في كراج السيارات.»

دوّى صوت انفجار ثان، ثم ثالث.

سألني بعض الأقرباء والأصدقاء من مناطق عدة هاتفياً:

- «ماذا حدث، هل الانفجار قريب منكم؟»

كانت الأسئلة تحمل كثيراً من القلق.

قال فؤاد: «اعتقدنا أننا ارتحنا من هؤلاء الكلاب.»

قلت: «لأنهم في وضع صعب جاؤوا يضربون هنا.»

ضحك مني... «يا رجل، ذكرتني بالمحللين السياسيين الموالين.»

ارتفعت أبواق أصوات سيارات الإسعاف والإطفاء.

تعددت الآراء حول التفجيرات، قراءات كثيرة متناقضة تنتشر على مواقع التواصل، ثمة من قال: «إنها صواريخ بعيدة المدى.»

وثمة من أكد أنها «سيارات مفخخة»، وآخرون قالوا إنها «أحزمة متفجرة يحملها هؤلاء الحالمون بالحوريات.»

اتصلت عفراء من دمشق: «ماذا يحدث عندكم، أين، وكيف حدث ذلك؟»

قلت: «لم أتبين بعد المكان بالضبط، ولا كيفية حصول التفجيرات.»

قالت: «هناك خبر عاجل على التلفاز «تفجيرات في طرطوس.»

ويرتفع بكاء عفراء...

نهرتها: «عفراء، هل أدمنت البكاء؟»

- «أتريدني أن أضحك والحرائق تلتهم الأجساد؟ تفرّج على التلفاز، إنه الجحيم، قلبي يحترق على هؤلاء، لماذا وصل الإجرام إلى هذا الحدّ من الكفر والدم.»

كان بكاء عفراء يهزني، أمسكت بالهاتف، واتصلت بـ فؤاد كونه في المدينة:

- «فؤاد ماذا يحدث؟»

أجاب فؤاد: «التفجير الأول حصل في الكراج، والثاني حدث قرب مبنى الكهرباء في أول المدينة، والثالث بالقرب من مستشفى خاص نجح مواطن ضحى بنفسه في منع حامل الحزام الناسف من الوصول إلى المستشفى، لكن التفجير الأكثر دموية، تفجير إرهابي لنفسه في مركز الإسعاف بالمستشفى الوطني بالمدينة، من لم يقتل في التفجيرات قتل هناك، يقولون إن أعداد القتلى والجرحى كبيرة، وأن الدم يسيل كصنبور ماء على الأرض، ويتجه إلى خارج بوابة المستشفى، مشاهد مرعبة، يخطر في بالي أن أشتم الإسلام.»

قلت: وما دخل الإسلام بما يفعله هؤلاء... هي الوهابية .

لم يناقشني... عندما يكون على حدود التفجر، يكتفي بالصمت، لكن عينيه تفوران بحزن عميق يرفض بكبرياء أن يحوله إلى دموع، لكنه في هذه المرة فشل في احتباس حزنه وراح يبكي، قلت: فؤاد أنت تبكي؟»

لم يجب، وأغلق سماعة الهاتف.

* * *

أحب الاستماع إلى أخبار فؤاد اليومية.

بعد بدء الحرب... كانت أغلب أخبار فؤاد تدور حول ما يجري من أحداث...

والجميل في فؤاد أنه يتابع الأخبار، ومن أجل أن يكسبها المصداقية يسندها إلى مصدر موثوق، وعندما أسأله عن هذا المصدر، أهو أخوه أحمد، أم زوج ابنته الذي أعاد إليه زوجته، يضحك فؤاد ... «لي مصادري الخاصة...

لو كنت إعلامياً مثلك، لملأت صفحات الجرائد بأخبار وأسرار مذهلة.»

وفجأة يقول: «وسيم... افتح على محطة الجزيرة.»

- «ما الخبر؟»

«استمع إلى ما يقوله صاحبك طاهر عن التفجيرات في جبلة وطرطوس... يقول:

إن النظام فعلها لاستنفار الناس طائفياً، الرجل فقد حياءه.»

رحت أبحث عن قناة الجزيرة، منذ ثلاث سنوات لم أفتح على هذه المحطة...

لم أعثر عليها. آلمني أن يتحدث طاهر بهذه اللغة كما رواها فؤاد ...

وآلمني سقوطه وطنياً، وهو من كان ذات يوم معجوناً بالوطنية.

قلت لزوجتي فاطمة وأنا أبحث عن محطة الجزيرة:

كيف يحدث هذا السقوط لأناس كانوا في غاية النقاء الوطني، نغفر لهم أن يكونوا معادين للسلطة، ولكن هذا وطن، كل فعل يسيء إليه خيانة.

أذكر أنني التقيت طاهر منذ فترة ليست بعيدة على الشاطئ، وجرى حوار بيننا، لم أفهم منه يومذاك أنه سيغادر، وأظهر لي

حرصاً على البقاء في الوطن، قال: «الوطن يحتاجنا كلنا، وبعد انتهاء الحرب، نجلس حول طاولة الوطن الواسعة ونتحدث بصراحة في كل شيء.»

يومذاك سألته: طاهر ... «كم بقي لديك من الأصدقاء؟»

ضحك... «اسألني كم بقي لديك من دولارات.»

يومها لم أفكر بمغزى إجابته، طاهر لم يعد يمتلك دولارات، هل باع نفسه لقاء حفنة ريالات أو دولارات... كل شيء جائز.

وأنا أبحث عن محطة الجزيرة، استوقفني لقاء على محطة «الأورينت» المعارضة، ثمة رجل يتحدث عن النظام في سورية ويدعو إسرائيل لشن حرب لإسقاط النظام، رحت أتذكر أين رأيت هذا الرجل، أنا متأكد أنني رأيته ، مقدم البرنامج أراحني من البحث عندما سأله: «سيادة العميد نبيل باعتبارك كنت رئيسا لفرع أمن، كيف ترى مستقبل النظام؟»

عاد نبيل إلى دعوة إسرائيل للقيام بهجوم على سورية وإسقاط النظام ومجيء سلطة جديدة تقيم سلاماً مع إسرائيل.

-٢٤-

رنّ هاتفي المحمول، كانت عفراء، قالت: «جاء رجال ملثمون وحرقوا بيتنا... أحد الجيران قال لي إن ابنك مسعود أمر المهاجمين بالحرق وأنهم سألوا عني. «الحمد لله إنك لم تكوني موجودة، وابنك محمد لم يكن موجوداً.»

كانوا يهتفون: «نحرق بيت الكافرة ...»

- «أرأيت إلى أين وصلت الأمور، ابن يتهم والدته بالكفر، ويطالب بذبحها، وحرقها... لو أرضعت شيطاناً لما رضي أن يقتلني.»

قلت: «عدنا إلى البكاء.»

- «وسيم، أنت أخي، دعني أفجر بكائي وحزني وأوجاعي أمامك، أنا في أزمة، إن لم أفرغ ما يتفجر في روحي من حزن أمامك، أمام من سأفعل؟»

- «أنا آسف عفراء.»

* * *

راحت الفصائل الإرهابية تمطر حلب الغربية من أحياء «بني زيد»، والكاستيلو، والشيخ سعد، ومخيم حندرات، بقذائف جهنم، وتتلاقى، مع القذائف التي تطلق من جهة الغرب في خان طومان.

عشرات القتلى والجرحى، راحوا يسقطون في أحياء السليمانية والجابرية والهلك والميدان والسيد علي والحمدانية وسيف الدولة.

وأعلنت فصائل الإرهاب هجوماً كبيراً على مناطق الكليات، وعلى معمل الاسمنت والبحوث والراموسة لقطع الطريق بين حلب ودمشق.

بدا هذا الهجوم مخيفاً، كان قطع طريق حلب من قبل النصرة وفصائل إرهابية أخرى، يعني في النهاية موت حلب الغربية جوعاً وعطشاً. اتصلت مع صديقي عبدو وسألته: «ماذا يحصل؟»

أخبرني أنه غادر بيته في سيف الدولة لأول مرة منذ خمس سنوات، إلى بيت أحد أقربائه في عمق المدينة، لأن قذائف الإرهابيين تتساقط كالمطر ومشاهد الدمار، والموت مرعبة.

لم تكن حلب وحدها تعاني من نيران الإرهاب...

في الجولان، راحت العصابات الإرهابية تهاجم «بيت جن، ومدينة البعث، وتتقدم لقطع طريق القنيطرة دمشق، بدعم من الطيران الإسرائيلي، وفي حوران تهاجم درعا المحطة، وأبطح، وداعل، وأطراف الشيخ مسكين... وتعاود تلك العصابات الهجوم على حقل الشاعر النفطي في منطقة تدمر.

بدت سورية كلها في مواجهة الدم والخوف والرعب...

كانت القوات المسلحة تقاتل ببسالة منقطعة النظير، ويظل سؤال في رأسي... «كيف يصمد هؤلاء الرجال في وجه هذا السيل من الجحيم ؟»

اتصل فؤاد، وأقسم بالله أنه سيلتحق منذ الصباح بقوات الدفاع المدني بحماه:

«إن لم أحسن القتال، فأنا أحسن حمل الذخيرة والطعام للجنود، هل نتركهم يصلون إلى بيوتنا وأعراضنا؟»

كان الإرهابيون يشنون هجوماً على محردة والمحطة الحرارية والسقيلبية، من بلدة حلفايا واللطامنة، وتصل صواريخهم إلى بلدة سلحب، راحوا يعلنون عبر وسائل إعلامهم أنهم يريدون احتلال المنطقة والتوجه نحو مدينة حماه أو التحرك نحو الساحل عن طريق الممر الجبلي الغاب - الساحل.

قالت لي زوجة فؤاد: «فؤاد يفعلها، هو مصمم على الالتحاق بالدفاع الوطني.»

وكنت مثلها على يقين أن فؤاد في هذه المرة سيفعلها، بدا جاداً، وكنت في حيرة من هذه الجدية التي أقرؤها في صوته وملامحه...

لم أشأ أن أسأله إن كان يود الهروب من حياته ، أم أنه وصل إلى حد الانفجار وهو يستمع إلى تهديدات الإرهابيين ومشاهد الذبح التي تبثها قناة «عماق» التي يشرف عليها تنظيم داعش.

كان الوجع حاداً في صوت جويل وهي تسألني: «ماذا يحدث؟»

تلفاز «الميادين» يعرض مدينة حلب، شرفات المنازل المحيطة بساحة السليمانية المفتوحة على الضوء كومة من الركام، زميلتي مادلين كانت تسكن في تلك الشرفة المطلة على الكنيسة... من الشارع كنت أناديها لنذهب معاً إلى المدرسة، أتذكرها؟ كانت عندما ترانا معاً أنا وأنت تغمزني بعينيها وتبتسم .

- «أذكرها.»

انفجر بكاء جويل:

«وسيم... الشرفة التي كانت تقف فيها رأيتها مهدمة... أتخيل الآن أن مادلين تحت أنقاض تلك الشرفة وأن وجهها من بين الركام، اسأل لي أحد أصدقائك في حلب عن مادلين.»

انفجر صوتي في وجهها رغماً عني: «تعبت من بكائك، ومن بكاء عفراء، ومن حزن زوجتي فاطمة، ومن فؤاد، تعبت، تعبت، والله تعبت.»

«الله يخليك اسأل عن مادلين.»

اتصلت مع صديقي عبدو وسألته عن مادلين وحددت له العنوان.

أخبرني عبدو بعد يومين أن البناء الذي تسكنه مادلين هدم بقذيفة، وأن مادلين وأولادها وزوجها قتلوا في التفجير، وقتل في البناء عشرات الأطفال، وآخرون كانوا في طريقهم في ذاك الصباح إلى المدرسة.

حاولت أن أجد طريقة لإخبار جويل بما حدث لمادلين عندما اتصلت وقالت معاتبة... «لم تسأل لي عن مادلين.»

صوت جويل الحزين جردني من شجاعتي لمصارحتها، لهذا قلت لها:

«لم أصل بعد إلى معرفة مصيرها، صديقي عبدو يحاول إلى الآن التقصي.»

أخبرتني جويل أنها قرأت كتاباً يوضح كيف دخل العثمانيون حلب وكيف قتلوا، واغتصبوا، وذبحوا، وهجّروا الناس، وأرادوا يومذاك إبادة أهل حلب... أتذكر الآن بكاء «وانيس» الأرمني على مجازر الأرمن، وبكاء أمينة على أحلامها الضائعة، اليوم... أنا شديدة الشبه بأمينة... اليوم عرفت لماذا كان «وانيس» الأرمني يعزف على «جنبشه» مقطوعات حزينة عن مأساة الأرمن ويبكي... هو الحزن يحول حياتنا إلى دموع... أولادي راحوا يبكون معي وهم يتابعون على شاشات التلفزة ما يجري، حفيدي بعمر حفيدتك جولي، يطلب مني أن أحدثه عن حلب، كل يوم يغرقني بالأسئلة... أما زالت حفيدتك جولي تطرح عليك أسئلتها عن الحرب، والشهداء؟ كل الأحفاد يسألون.

قلت لحفيدي: «عندما تتوقف الحرب سنذهب إلى هناك ونرى جولي، والعم وسيم وقلعة حلب... وسيم «هل دمروا قلعة حلب.»

«لا، ما زالت صامدة ، بخير.»

- «وتمثال أبي فراس؟»

«أيضا بخير.»

«أرسل لي صورة القلعة... أرسل لي صوراً للوطن، أريد أن أزرع الوطن في أحفادي، نحن كأسماك السلمون تعود إلى موطنها، وأرسل لي صور حفيدتك جولي، وقريتكم، وصور عائلتك... والأولاد، والأحفاد... وأنا بدوري سأرسل لك صور عائلتي، دعنا نزرع فيهم حلم اللقاء. وسيم... هل تعتقد أن لقاء حفيدي وحفيدتك إن حدث يوماً، سيعيد حكايتنا مرة أخرى؟»

ضحكت: «لا أدري.»

«كعادتك... تهرب من الأسئلة، المهم، ماذا عن عفراء؟»

«في آخر حديث كان بيننا، حدثتني عن عزمها على السفر للبحث عن ابنها خالد الذي غادر الوطن، ربما سافر إلى اليونان و ابتلعه بحر إيجة.»

«أيضاً... ربما.»

عبر سرب من الطائرات الروسية فوق بيتنا...

قلت: «جويل، أنا لا أسمعك الآن، سرب من الطائرات الروسية يعبر فوقي نحو جبهات الحرب.»

- «هل يزعجك هدير الطائرات الروسية كون المطار قريباً من سكنك؟»

«أبداً... يوم تتوقف الطائرات الروسية عن الإقلاع من المطار يصيبنا حزن وخوف، ونتساءل «ما الذي يحدث؟... الطيران الروسي يمنحنا التفاؤل.»

اتصلت مع عفراء وسألتها: «هل ستسافرين للبحث عن خالد.» قالت: «نعم تهيأت للسفر عن طريق البر من جهة إدلب. قلت: ولكن إدلب بأكملها تحت سيطرة الإرهابيين.» قالت: «أعلم، ثمة عصابات تهريب من هنا وهناك هي التي تتدبر أمر التهريب.»

سألتها: «من يقوم بتنسيق تلك العمليات، جماعة من الإرهابيين؟»

قالت: «أعرف سيدة اسمها نازك من بلدكم ، هي التي تدير هذه الأمور.»

- «أعرفها، نازك توزع شهادات انتماء للوطن.»

- «أليست المرأة التي وشت بك، وعرضتك للسؤال والجواب؟»

- «هي بعينها.»

-٢٥-

هاتفني فؤاد، «تعال نشرب القهوة في مقهى الشاطئ.»

منذ زمن لم أذهب إلى مقهى، ولم أزر الكورنيش، بات الخروج من البيت مقلقاً، الجميع باتوا يتوقعون حدوث تفجيرات في أي مكان وفي أي لحظة، وبخاصة على الكورنيش.

قلت لفاطمة: «أنا ذاهب لأشرب القهوة مع فؤاد.»

حذرتني، «الكورنيش أكثر الأماكن خطورة.»

قلت: «الأعمار بيد الله.»

صمتت، لكنني قرأت في عينيها فزعاً. مازحتها: «هل تخافين علي؟»

منذ زمن لم أر دموعها، بكت... «إن لم أخف عليك، على من أخاف؟»

جلست مع فؤاد في مواجهة البحر، ثمة سرب من طيور النوارس يطير على ارتفاعات مختلفة، طوال عمري أحب طيور النوارس...

كانت جويل تحب حكاياتي عن النوارس، في أحد الاتصالات بيننا، قالت إنها رأت النوارس في فنزويلا، وأنها تتذكرني كلما رأتها... لكنها لا تعلم إن كانت النوارس في فنزويلا تشبه النوارس عندنا.

يومذاك سألتها: «هل عندكم أبو فراس الحمداني؟»

ضحكت... «وسيم ، لماذا تتعمد أن تنبش ذاكرتي؟»

عبرت طائرات سوخوي، وكان التلفاز في المقهى يبث صوراً للإعلام الحربي حول توجه القوات السورية إلى مطار الطبقة لتحريره من داعش، ومشاهد عن تقدم الجيش في محيط طريق الكاستيلو لإحكام الطوق على المسلحين في حلب، ومشاهد عن قصف حي «بني زيد» بعد يوم من القذائف التي أطلقها المسلحون على أحياء كثيرة في حلب من هذا الحي، وأحدثت أضرارا كثيرة، وقتلى وجرحى بالمئات.

قلت: «فؤاد، دعنا نمشِ من هنا، قلبي لا يطيق تحمل هذه المشاهد.»

ضحك: «يا رجل، من يقرأ ما تكتبه يعتقد أن قلبك من حديد، وأنك لست سوى رجل عاطفي مملوء بالحزن إلى درجة الانكسار.»

- «أكتب لأزرع في الناس القوة.»

- «وتحتاجها لنفسك؟»

قلت: «سأغادر، وأنت عد إلى البيت.»

- «لا، سأبقى هنا، لا أطيق البقاء في البيت، بيتنا في حزن على يوسف، وزوجتي لا يغادرها البكاء، تفجر رأسي بحزنها، صارت كتلة من البكاء والدموع والحزن، هل كل أمهات الشهداء على شاكلة زوجتي؟»

- «الابن قطعة من القلب.»

كان التلفاز في المقهى يعلن أخبار حلب ، عشرات القذائف تسقط على الأحياء الغربية، لم أستطع متابعة الأخبار.

قلت: «فؤاد، أنا عائد إلى بيتنا.»

- «هل اشتقت إلى فاطمة ؟»

- «غادرتها وهي تبكي.»

- «صار البكاء سمة الجميع، إلا أنت.»

تجولت على امتداد كورنيش المدينة، كانت زوارق الصيادين متوقفة في الميناء،

منذ زمن لم يذهب الصيادون إلى البحر، قال لي أحد البحارة وأنا أتأمل الميناء :

«حتى البحر بات خطراً، هناك من يخطف هذه الزوارق ويبحر بها إلى تركيا». كنت أتأمل الميناء، يوم كنت في المرحلة الابتدائية... كنت أمارس السباحة في هذا الميناء، كان الميناء صغيراً، وعدد الزوارق قليلاً و لها أسماء، كل صياد كان يسمي زورقه على اسم حبيبته، الأسماء اليوم اختلفت، وبات أكثرها أسماء أجنبية.

سألني البحّار: «أليس لهذه المأساة نهاية؟»

حقيقة، لم يكن لدي جواب، لكنني آثرت القول: «قريباً إن شاء الله.»

* * *

رنّ هاتفي المحمول، جاءني صوت فاطمة :

«تعال... صديقك فؤاد...» وتوقف صوتها...

سألت بقلق: «فؤاد؟!... ما به ، قبل قليل كنت معه في المقهى.»

«أخبرتني زوجته إنه أصيب بنوبة قلبية في المقهى.»

كانت الصدمة التي أحدثها الخبر قوية، وارتج رأسي، وشعرت أنني على مشارف السقوط ، تقدمت إلى مقعد حجري وجلست... على هذا المقعد جلست أنا وفؤاد عشرات المرات، بل مئات المرات، نتحاور ونتحدث، كان فؤاد الإنسان الوحيد الذي أحدثه بما أشعر به تجاه أي شيء، وكان يحدثني بكل تفاصيل حياته اليومية.

سألني البحار: «ماذا حصل؟»

قلت: «صديقي فؤاد أصابته ذبحة قلبية.»

- «رحمة الله عليه، هو صديقي أيضاً.»

مشينا صامتين إلى بيت فؤاد، سألت زوجته: «كيف حصل ذلك؟»

أبكاني موت فؤاد، لم أعرف الحزن كما عرفته على فؤاد، كان أبي يقول:

«الحزن درجات، وذروة الحزن موت رفيق عمر عشت معه مشاعرك وحياتك وحزنك وفرحك وسرك وصوتك وهمسك.»

قالت زوجة فؤاد: «فؤاد أوصاني إن أصابك مكروه، اعتمدي على وسيم هو أخي الذي لم تنجبه أمي.»

تلك العبارات التي قالتها أمام الجميع في مجلس العزاء، فجّر قولها حزني، وأبكاني. وتساءلت لماذا قالتها في مجلس العزاء وأمام الناس ولم تقلها لي في جلسة عائلية .

نهض أحمد شقيق فؤاد على الفور.

قالت لي زوجته: «عرف أن الرسالة موجهة إليه.»

فهو منذ سنوات على قطيعة مع فؤاد، في الآونة الأخيرة كان فؤاد بحاجة إلى المال لتأمين احتياجات طعامه فقط، مرة صارحني أنه باع آخر قطعة ذهبية لزوجته لتأمين عيشه. كل شيء تضاعفت أسعاره عشر مرات والراتب على حاله، وما كان معنا اغتصبه دواعش الداخل.

يومها نصحته أن يذهب إلى أخيه أحمد، رفض، قال: الرجل لم يعد يعتبرني أخاً، استشهد يوسف، لم يأت إلى العزاء ولم يتصل، كيف لي أن أذهب إليه، هل تريدني أن أستجديه، سأقول لك من تجربتي:

«لا قرابة بين الأغنياء والفقراء ولو كانوا أخوة.»

*   *   *

بدأت أشعر بالوحدة بموت فؤاد ...

في كل صباح أفتح «النت» وأطالع أخبار الصحف...

أو أتابع التلفاز... أو تلك التحليلات التي تشبه الخطب الممجوجة التي يلقيها من يسمون أنفسهم «محللين سياسيين» في الموالاة والمعارضة، كلهم متشابهون تقريباً في النبرة والتحليل الذي يفتقر إلى العلمية والحيادية والوقائع.

ووصلت إلى وضع بت فيه لا أعرف كيف سأجيب على أسئلة من التقي معهم في الطريق أو في مناسبات العزاء، حتى مقالاتي الأسبوعية باتت «مغطوطة» بالوجع.

زوجتي سألتني إن كنا نستطيع تمضية يوم أو يومين في صلنفة لنرتاح قليلاً من وجع الأخبار بعد أن تحسنت الأمور الأمنية، وحرر الجيش المناطق التي احتلها المسلحون في جبال الساحل، وباتت صلنفة آمنة.

- «تهيئي...»

تمنيت لو استطيع الابتعاد نهائياً عن الأخبار وإغلاق غرفتي عليّ زمناً، ورغم أن الفكرة راقت لي بعض الوقت إلا

أنني وجدت نفسي أسرع إلى متابعة أخبار مسائية «الميادين» في السادسة.

قالت: «ألا تستطيع الابتعاد عن الأخبار؟»

قلت: «هذا وطن... أي وجودنا في هذه الأرض.»

- «هل سنغادر غدا إلى صلنفة.»

- «إن شاء الله.»

* * *

جاءني صوت محمد ابن عفراء... ابتلع البكاء كلماته.

- «ما بك يا محمد ، هل حصل لك مكروه؟»

- «أمي.»

- «ما بها؟»

- «ماتت.»

- «كيف حصل ذلك؟»

«ماتت غرقاً وهي في طريقها إلى اليونان للبحث عن أخي خالد.»

تجمدت دموعي، حتى في الاستثناءات التي تمنيت فيها البكاء، تجمدت ...

رحت أستعيد شريط ذكرياتنا، كلماتها، أسئلتها، حزنها، دموعها، عشقها للوطن، تلك العلاقة الأخوية بيننا في الأشهر الأخيرة، عاد محمد يسألني:

- «ماذا سنفعل؟»

- «سنقيم لها هنا مجلس عزاء.»

* * *

صباحاً...

وأنا أجتاز الطريق الرئيس من أمام بيتنا، كادت سيارة تدهسني، صاح سائقها: «ألا ترى أمامك يا...»

أوقف السائق السيارة، واقترب مني... «اعتذر» لم أكن أعرفك، رجاء لا تؤاخذني.

قلت: «رجاء، أنت لا تؤاخذني، أظنني شخت.»

راح السائق يضحك: «لا، يا عم، عقلك يزن بلداً.»

«العقول اليوم في محنة، يا بني.»

أذكر ...

في آخر مرة التقيت عفراء، خطت بقلم الرصاص عدة كلمات عن الوطن، ورسمت عقداً من أزهار النرجس الجبلي، كانت تجيد رسم النرجس، قلت: أنت رسامة بارعة.»

ضحكت... «في رسم النرجس الجبلي فقط.»

توقفت أمام بائع للزهور، قلت له: «أريد باقة من الورود مزينة بالنرجس.»

اعتذر «لا يوجد لدي أزهار النرجس، لا أحد يطلبه هنا.»

ذهبت إلى سياج منزل في أطراف المدينة، تعرش عليه شجرة ياسمين، ورأيت أزهار نرجس متفتحة خلف السور، كان الجو غائماً ويوحي بعاصفة...

فتحت باب الحديقة، سألني صاحب المنزل: «ماذا تريد؟»

قلت له: لدي أخت كانت تحب أزهار النرجس، وأريد أن أضع على قبرها باقة منه. قال: «انتظر لأحضر لك مقصاً، النرجس تؤلمه القسوة.»

«شكراً... »

فاح عطر النرجس، وتغلغل إلى صدري، وروحي .

سألني الرجل: «ألست من يكتب عن الوطن.»

- «نعم.»

قال: «في هذه المرة أكتب لنا عن النرجس.»

- «سأكتب...»

رجعت إلى بائع الزهر. راح بائع الزهر يتفنن في ترتيب أزهار النرجس، قال:

«أنت أول من طلب النرجس، ماذا يرمز لك.»

لم أجبه عن سؤاله المباشر لكنني قلت:

«اترك أزهار النرجس على راحتها...

النرجس لا يحب المساحات الضيقة.»

حملت إكليل النرجس واتجهت به إلى الشاطئ...

من أعلى صخرة مطلة على الموج المتكسر على الشاطئ الصخري، نظرت إلى الأفق، أذكر أنني وقفت في المكان نفسه أنا وعفراء، وتأملنا البحر الواسع...

يومذاك بكت، وقالت: «البحر يثير أشجاني.»

راح وجهها يطلع من بين الموج... يقترب، ويقترب، وأومأت بيديها، وراحت تبتسم، قال لي رجل: «انتبه، أخشى عليك من السقوط.»

أمسك بي، ألقيت بإكليل النرجس نحو عفراء، ورفعت يدي لها... ملوّحاً أن تقترب

راحت أزهار النرجس تتمدد على الموج... وتبتعد .

ثمة دمعة على وجهي راحت تنحدر.

سألني الرجل: «ماذا حدث.. أنت تبكي؟!»

قلت: «لا شيء، لا شيء.»

ورحت أتأمل النوارس وهي ترحل إلى الأفق البعيد، والموج، وهو يحمل أزهار النرجس، ويعيدها إلى الشاطئ من جديد ...

ثمة غيوم سوداء كانت تقترب من الشاطئ، وتتجه شرقاً نحو الجبال، وسادت عتمة، وتساقط مطر غزير، بدا في العتمة أسود كالحبر، أمسكت ببعض حباته، وارتسم في وسط السماء قوس قزح، راح يضيء حبات المطر.

سليم عبّود

- إجازة في الأدب العربي.
- عضو اتحاد الصحفيين.
- عضو اتحاد الكتاب العرب.

من أعماله:

- مجموعة قصصية من - سلسلة أدب الشباب عام ١٩٧٦م.
- ذاكرة السنديان (رواية) مؤسسة الوحدة ١٩٩٩م.
- البيدق (رواية) بيروت ٢٠٠٠م.
- النو (رواية) اتحاد الكتاب العرب.
- أوراق الغرفة ٦٧ (رواية) دار المرساة.
- وشم امرأة (رواية) دار شرق وغرب وغيرها.

الطبعة الأولى/٢٠١٨م

كلمة الغلاف

في آخر مرة التقيت عفراء، خطت بقلم الرصاص كلمات عن الوطن، ورسمت عقداً من أزهار النرجس الجبلي، كانت تجيد رسم النرجس، قلت: أنت رسامة بارعة.»

ضحكت... «في رسم النرجس الجبلي فقط.»

توقفت أمام بائع للزهور، قلت له: «أريد باقة من الورود مزينة بالنرجس.»

اعتذر «لا يوجد لدي أزهار نرجس، لا أحد يطلبها هنا.»

ذهبت إلى سياج منزل في أطراف المدينة، تعرش عليه شجرة ياسمين، ورأيت أزهار نرجس متفتحة خلف السور، كان الجو غائماً ويوحي بعاصفة...

فتحت باب الحديقة، سألني صاحب المنزل: «ماذا تريد؟»

قلت له: لدي أخت كانت تحب أزهار النرجس، وأريد أن أضع على قبرها باقة منه. قال: «انتظر لأحضر لك مقصاً، النرجس تؤلمه القسوة.»